الأصول العشرة

للمسلم المعاصر

الـدكتـور

عبـد الله الأميـن

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله: نحمده، ونستعينه، ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا؛ مَنْ يهده الله: فلا مضل له، ومَنْ يضلل: فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

* قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛[آل عمران: ١٠٢].

* وقال الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾؛[النساء: ١].

* وقال سبحانه وتعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛[الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أمّا بعد:

فإن المسلم في الأزمنة التي نحياها والتي تتزاحم فيها الفتنُ، وتتلاحق كأشدّ أمواج البحر عُتواً، وعُلواً لَيحتاج- بعد حفظ الله- إلى جملة من الأصول يُحْكم بها دينَه علماً، وعملاً مع اللّهج بالدعاء أن يُنجيه الله بمنّه، وكرمه من الفتن جميعاً.

والحق؛ فإن الأصول التي تدخل تحت تلك الترجمة: كثيرةٌ، متنوعة؛ وهو ما تطول به الرسالة عند مقاربة الاستقصاء فضلاً عن دَركه ممّا يَصرف الكثيرين عنها: فلم يكن بدٌّ من انتقاء ما يغلب على الظن عِظَمُ الحاجة إليه، وتقديمه على غيره؛ فكانت الأصول العشرة التي ضمّتها الرسالة.

وعليه؛ فليس فيما ذُكر هنا: حصرٌ أو قصر؛ وإنما هو التقديم للمهمات، والحرص عليها بغلبة الظن لا غير؛ والله الموفق.

اللهم: ربّ جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة؛ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون: اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي مَنْ تشاء إلى صراط مستقيم.

الأصل الأول

لم يُخلق الإنسانُ عَبثاً

وأنّى للعبث في أفعال الله، وقدره؟!؛ وهو سبحانه وتعالى:{ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}- هود: ٤٥-، وهو سبحانه: {الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}- الزخرف: ٨٤-(١).

فـ" الإنسان"؛ قطعاً: لم يُخلق عبثاً؛ وإنما خُلقَ لحكمة كبيرة، وغاية عظيمة:

ـــــ وقد نفى الله سبحانه وتعالى في كتابه أنه خلق الخلق باطلاً:

* فقال تعالى:{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}؛[آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

ففي هذه الآيات الكريمة ينفي اللهُ سبحانه وتعالى أنه خَلق الخلقَ باطلاً؛ أي: لغير حكمة، ظاهرة، ثابتة، مستقرة.

(و" هذا"؛ في قوله:{ مَا خَلَقْتَ هَذا}: كنايةٌ عن المخلوق؛ يعني: ما خلقتَ هذا المخلوق العجيب: باطلاً)(٢).

* وقال تعالى- أيضاً-:{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}؛[ص: ٢٧].

فـ(لَمّا ظنَّ الكفار أن الله خلق السماوات، والأرض، وما بينهما باطلاً؛ لا لحكمة تكليف، وحساب، وجزاء: هدّدهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيء في قوله تعالى:{ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار})(٣).

---

(١) انظر:" شفاء العليل/١٨٥".

(٢)" التفسير الكبير٩/١١٣".

(٣)" أضواءالبيان٧/٢١١".

وقوله في الآية:{ باطلاً}؛ أي:(خَلْقاً باطلاً لا لغرض صحيح، وحكمة بالغة أو مبطلين عابثين...؛ وتقديره: ذوي باطل أو عبثاً؛ فوضع باطلاً موضعه كما وضعوا هنيئاً موضع المصدر؛ وهو صفة؛ أي: ما خلقناهما وما بينهما للعبث، واللعب؛ ولكن للحق المبين؛ وهو أن خلقناها نفوساً أودعناها العقل، والتمييز، ومنحناها التمكين، وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف، وأعددنا لها عاقبة، وجزاء على حسب أعمالهم؛ و:{ ذلك}: إشارةٌ إلى خلقها باطلاً؛ والظن: بمعنى المظنون؛ أي: خَلْقُها للعبث لا للحكمة: هو مظنون الذين كفروا)[1].

ــــــ ونفى اللهُ سبحانه وتعالى- كذلك- أنه خلق الخلق لَعباً، ولهواً:

* فقال تعالى:{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}؛[الأنبياء: ١٦- ١٨].

(فنزّه نفسَه أن يكون فعله كفعل اللاعب العابث الذي لا يقصد غاية محمودة يريد سوق الوسائل إليها؛ فإن هذا فعل الجاد الذي يجيء بالحق)[2].

والآيات تُبين- بجلاء- أن الإنسان لم يُخلق لَعِباً أو لهواً بل خُلق لغاية عظيمة، جليلة، خطيرة[3]!.

* وقال تعالى- أيضاً-:{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}؛[الدخان: ٣٨- ٣٩].

(أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله:{ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين}؛ يقول: ما خلقناهما عبثاً، ولا باطلاً)[4].

ــــــ وقد أنكر اللهُ تعالى إنكاراً بليغاً على مَنَّ ظنّ أن الخلق خُلقوا عبثاً:

* فقال تعالى:{ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}؛[المؤمنون: ١١٥- ١١٦].

---

(١)" الكشاف٤/٩١"؛ ونحوه في:" تفسير أبي السعود٧/٢٢٤".

(٢)" جامع الرسائل لابن تيمية/٢٠".

(٣) انظر:" زاد المسير٥/٣٤٣"،" تفسير السعدي/٥٢٠".

(٤)" الدر المنثور٥/٦١٩".

والاستفهام في قوله تعالى هنا:{ أفحسبتم}:(للإنكار، والحسبان هنا؛ معناه: الظن؛ يعني: أظننتم أنّا خلقناكم عبثاً لا لحكمة، وأنكم لا ترجعون إلينا يوم القيامة؛ فنجازيكم على أعمالكم؛ إنْ خيراً: فخير، وإنْ شراً: فشر ثم نزّه جل وعلا نفسه عن أن يكون خلقهم عبثاً، وأنهم لا يرجعون إليه للحساب، والجزاء؛{ فتعالى الله الملك الحق}.

وقوله:{ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم}؛ أي: تعاظم، وتقدّس، وتنزّه عن كل ما لا يليق بكماله، وجلاله؛ ومنه خلقكم عبثاً سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً)[١].

قال أبو السعود- رحمه الله-:({ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً}؛ أي: ألم تعلموا شيئاً؛ فحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتى أنكرتم البعث؛ فـ" عبثاً": حال من نون العظمة؛ أي: عابثين أو مفعول له؛ أي: أنما خلقناكم للعبث؛{ وأنكم إلينا لا ترجعون}: عطفٌ على:" أنما"؛ فإن خلقكم بغير بعث من قبيل العبث؛ وإنما خلقناكم لنعيدكم، ونجازيكم على أعمالكم؛ وقرئ:" ترجعون": بفتح التاء من الرجوع.

{ فتعالى الله}...؛ أي: ارتفع بذاته، وتنزّه عن مماثلة المخلوقين في ذاته، وصفاته، وأحواله، وأفعاله، وعن خلو أفعاله عن الحكم، والمصالح، والغايات الحميدة...)[٢].

وقد قال الإمام القرطبي- رحمه الله-:(قوله تعالى:{ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً}؛ أي: مهملين كما خُلِقتْ البهائم: لا ثواب لها، وعقاب عليها مثل قوله تعالى:{ أيحسب الإنسان أن يترك سدى}؛ يريد كالبهائم مهملاً لغير فائدة)[٣].

* وفي قوله تعالى:{ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى}؛[القيامة: ٣٦].

(أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله:{ أن يترك سدى}؛ قال: هملاً.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد في قوله:{ أن يترك سدى}؛ قال: باطلاً؛ لا يُؤمر، ولا يُنهى.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة في قوله:{ أن يترك سدى}؛ قال: أن يُهمل)[٤].

---

(١)" أضواء البيان٥/٣٦٣".

(٢)" تفسير أبي السعود٦/١٥٣".

(٣)" تفسير القرطبي١٢/١٥٦".

(٤)" الدر المنثور٨/٣٦٣"؛ وانظر هذه الآثار في:" تفسير ابن أبي حاتم١٠/٣٣٨٩"،" تفسير الطبري٢٩/١٩٩: ٢٠٠".

قال الإمام الشافعي- رحمه الله-:(فلم يختلف أهل العلم بالقرآن فيما علمتُ أن السُّدى؛ الذي: لا يُؤمر، ولا يُنهى)[1].

وقد قال ابن تيمية- رحمه الله-:(قال المفسرون، وأهل اللغة: السُّدى: المهمل الذي لا يُؤمر، ولا يُنهى كالذي يترك الإبل سُدىً مهملة)[2].

فمعنى الآية اتّفاقاً: أيظن الإنسان أن يعيش حياته(مهملاً: لا يؤمر، ولا ينهى، ولا يُكلّف في الدنيا، ولا يُحاسب بعمله في الآخرة)[3].

والاستفهام هنا:(توبيخٌ؛ ومعناه: أيَظن أن يُترك من غير بعث، ولا حساب، ولا جزاء؛ فهو كقوله:{ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً}؛ والإنسان هنا: جنس)[4].

قال ابن القيم- رحمه الله-:(فأنكر سبحانه على مَنْ زعم أنه يُترك سدىً إنكارَ مَنْ جَعل في العقل استقباحَ ذلك، واستهجانه، وأنه لا يليق أن يُنسب ذلك إلى أحكم الحاكمين؛ ومثله قوله تعالى:{ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم}؛ فنزّه نفسه سبحانه، وباعدها عن هذا الحسبان، وأنه يتعالى عنه، ولا يليق به لقبحه، ولمنافاته لحكمته، ومُلكه، وإلهيته؛ أفلا ترى كيف ظهر في العقل: الشهادةُ بدينه، وشرعه، وبثوابه، وعقابه)[5].

ــــــ هذا؛ وقد نصَّ الله سبحانه وتعالى، وصرَّح بأنه لم يخلق الخلق إلا بالحق؛ لا باطلاً، ولا لعباً، ولا عبثاً:

* قال تعالى:{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ}؛[الحجر: ٨٥- ٨٦].

فـ(ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه ما خلق السموات، والأرض، وما بينهما إلا بالحق؛ أي: ليدل بذلك على أنه المستحق لأن يعبد وحده، وأنه يكلف الخلق، ويجازيهم على أعمالهم؛ فدلّت الآية على أنه لم يخلق عبثاً، ولا

---

(١)" أحكام القرآن١/٣٦، ٢/١٢٣"؛ وانظر:" الرسالة للشافعي/٢٥".

(٢)" الفتاوى لابن تيمية١٧/١٧٤".

(٣)" تفسير الكبير٣٠/٢٠٦"؛ وانظر:" تفسير ابن كثير٤/٤٥٣".

(٤)" التسهيل في علوم التنزيل٤/١٦٦".

(٥)" مفتاح دار السعادة٢/١٢"؛ وانظر:" إيثار الحق على الخلق/١٩١".

لعباً، ولا باطلاً)[١].

قال السمرقندي- رحمه الله-:(قوله عز وجل:{ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق}؛ أي: للحق؛ والباء توضع موضع اللام؛ أي: لينظر عبادي إليها: فيعتبروا؛ ويُقال: وما خلقناهما إلا عذراً، وحجةً على خلقي)[٢].

والجملة الجامعة هنا لِما ذكره السمرقندي، ولِغيره؛ أن يُقال:({ إلا بالحق}؛ إلا خلقاً ملتبساً بالحق، والحكمة: لا باطلاً، وعبثاً)[٣].

(والحق: هو الحِكَم، والغايات المحمودة التي لأجلها خُلِق ذلك كلُّه؛ وهو أنواع كثيرة...)[٤].

قال السعدي- رحمه الله-:(أي: ما خلقناهما عبثاً، باطلاً كما يظن أعداء الله بل ما خلقناهما:{ إلا بالحق}؛ الذي منه أن تكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته، وحكمته، وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده؛ لا شريك له)[٥].

* وقال تعالى- كذلك-:{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}؛[الروم: ٨].

وقوله تعالى هنا:{ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى}؛(أي: ما خلقها باطلاً، وعبثاً بغير غرض صحيح، وحكمة بالغة ولا لتبقى خالدة؛ إنما خلقها مقرونةً بالحق، مصحوبة بالحكمة، وبتقدير أجلٍ مسمّىً لا بد لها من أن تنتهي إليه؛ وهو قيام الساعة، ووقت الحساب، والثواب، والعقاب ألا ترى إلى قوله تعالى:{ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون}؛ كيف سمّى تركهم غير راجعين إليه عبثاً؛ والباء في قوله:{ إلا بالحق}؛ مثلها في قولك: دخلت عليه بثياب السفر، واشترى الفرس بسرجه ولجامه؛ تريد: اشتراه وهو ملتبس بالسرج، واللجام غير منفك عنهما؛ وكذلك المعنى: ما خلقها إلا وهي ملتبسة بالحق، مقترنة به)[٦].

---

(١)" أضواء البيان٢/٣١٢".

(٢)" تفسير السمرقندي٢/٢٦١".

(٣)" الكشاف٢/٥٤٨"؛ وانظر:" الفتاوى لابن تيمية١٧/٩٥: ٩٦".

(٤)" شفاء العليل/١٩٨".

(٥)" تفسير السعدي/٤٣٤".

(٦)" الكشاف٣/٤٧٤"؛ ونحوه تماماً في:" تفسير النسفي٣/٢٦٨".

* وقال تعالى– أيضاً–:{ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ}؛[الأحقاف: ١– ٣].

قال الإمام الطبري– رحمه الله–:(وقوله:{ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق}؛ يقول تعالى ذكره: ما أحدثنا السماوات، والأرض؛ فأوجدناهما: خلقاً مصنوعاً، وما بينهما من أصناف العالم إلا بالحق؛ يعني: إلا لإقامة الحق، والعدل في الخلق)[١].

وما ذكره شيخ المفسرين من أن معنى قوله تعالى:{ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق}؛(يعني: إلا لإقامة الحق، والعدل في الخلق): يَجمع لنا كلَّ ما سبق بيانه من أن الله سبحانه لم يخلق الخلق باطلاً، ولا لعباً، ولا عبثاً؛ وإنما خلق الخلق بالحق؛ أي: لإقامة الحق، والعدل* بلفظ الإمام الطبري.

وقد قال ابن الجوزي– رحمه الله–:(ومعنى:{ إلا بالحق}: إلا للحق؛ أي: لإقامة الحق)[٢].

قلت: وإقامة الحق، والعدل: فرعُ التكليف بالشرع؛ وقد قال الله تعالى:{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}؛[الأحزاب: ٧٢].

(والأمانة؛ قال العلماء: هي ها هنا: التكاليف)[٣]؛(أي: التكاليف التي كَلَّفَ اللهُ بها عبادَه من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي)[٤].

ـــــ وبهذا؛ يظهر أن الحق الذي خُلِقَ له الخلق؛ هو القيام بأمانة التكليف.

قال الإمام ابن القيم– رحمه الله–:(فاعلم أنه لولا التكليف لكان خَلْقُ الإنسان عبثاً، وسدىً؛ والله يتعالى عن ذلك، وقد نزّه نفسَه عنه كما نزّه نفسَه عن العيوب، والنقائص؛ قال تعالى:{ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون}، وقال:{ أيحسب الإنسان أن يترك سدى}؛ قال الشافعي: لا يُؤمر، ولا يُنهى.

ومعلوم أن تَرْكَ الإنسان كالبهائم مهملاً، معطلاً: مُضادٌّ للحكمة؛ فإنه خُلق لغاية كماله؛ وكمُاله أن يكون عارفاً

---

(١)" تفسير الطبري٢٦/١".

* انظر في ذلك:" مدارج السالكين لابن القيم٣/٤٥٦: ٤٥٧".

(٢)" زاد المسير٦/٢٨٩: ٢٩٠"؛ وانظر:" تفسير العز بن عبد السلام٢/٥٢٢، ٣/١٨".

(٣)" الفروق للقرافي٤/٨٢".

(٤)" الزواجر للهيتمي١/٥١٣".

بربه، محباً له، قائماً بعبوديته؛ قال تعالى:{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}...

فهذه المعرفة، وهذه العبودية: هما غاية الخلق، والأمر؛ وهما: أعظم كمال الإنسان؛ والله تعالى من عنايته به، ورحمته له: عَرَضَه لهذا الكمال، وهيّأ له أسبابه الظاهرة، والباطنة، ومَكَّنه منها...

فأيّ الأمرَيْن أليق بالحكمة: هذا أو إرساله هملاً كالخيل، والبغال، والحمير: يأكل، ويشرب، وينكح كالبهائم؟!!!.

أيقتضي كماله المقدس ذلك؟!؛ فتعالى الله، الملك، الحق؛ لا إله إلا هو، رب العرش الكريم.

وكيف يليق بذلك الكمال طيُّ بساط الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وترك إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع، وتقرير الأحكام!؛ وهل عَرَفَ اللهَ مَنْ جَوّز عليه خلاف ذلك؟!؛ وهل ذلك إلا من سوء الظن به؟!.

قال تعالى:{ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء}.

فَحُسْنُ التكليف في العقول كحسن الإحسان، والإنعام، والتفضل، والطول بل هو من أبلغ أنواع الإحسان، والإنعام؛ ولهذا سمّى سبحانه ذلك: نعمةً، ومِنّةً، وفضلاً، ورحمةً؛ وأخبر أن الفرح به خيرٌ من الفرح بالنعم المشتركة بين الأبرار، والفجار؛ قال تعالى:{ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً}؛ فنعمةُ الله هاهنا: نعمتُه بمحمد صلى الله عليه وسلم، وما بعثه به من الهدى، ودين الحق؛ وقال:{ لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}، وقال تعالى:{ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم}، وقال:{ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}، وقال:{ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون}، وقال:{ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً}، وقال:{ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به}...؛ وهل النعمة، والفضل في الحقيقة إلا ذلك، وتوابعه، وثمرته في القلوب، والأبدان في الدنيا، والآخرة؛ وهل في العقول السليمة، والفطرة المستقيمة أحسنُ من ذلك، وأليق بكمال الرب، وأسمائه، وصفاته[1].

---

(١)" شفاء العليل/٢٦٦: ٢٦٧".

الأصل الثاني

الإنسانُ خليفةٌ من الله في أرضه

* قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾؛[البقرة: ٣٠].

تُمثّل هذه الآيات الكريمات: مفتتح قصة آدم عليه السلام؛ وهي من ثم: البدايات الأُولى لقصة الخلق، والخليقة؛ ويمكن القول: إنّ هذه الكلمات القرآنية المعدودة تُمثّل التأسيس لكل ما جرى، وحدث على الأرض؛ أي: التأسيس لقصة الكون بأسره من قَبل خلق آدم، وإلى أن يرث الله الأرض، ومَنْ عليها أو إلى أن يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

ـــــ وفي تلك الآيات يُبيّن المولى سبحانه وتعالى أنه أخبر الملائكة- تفضّلاً منه وإحساناً- بأنه: جاعلٌ في الأرض خليفة- آدم ثم بنيه من بعده- لعمارة الأرض بشرعه، ودينه.

قال أبو السعود- رحمه الله-:(والمراد بالخلافة: إما الخلافة من جهته سبحانه في إجراء أحكامه، وتنفيذ أوامره بين الناس، وسياسة الخلق لكن لا لحاجة به تعالى إلى ذلك بل لقصور استعداد المستخلف عليهم، وعدم لياقتهم لقبول الفيض بالذات؛ فتختصّ بالخواص من بنيه.

وإمّا الخلافة ممّن كان في الأرض قبل ذلك: فتعمّ حينئذ الجميع)(١).

وقال ابن الجوزي- رحمه الله-:(وفي معنى خلافة آدم: قولان؛ أحدهما: أنه خليفة عن الله تعالى في إقامة شرعه، ودلائل توحيده، والحكم في خلقه؛ وهذا قول ابن مسعود، ومجاهد.

والثاني: أنه خلف مَنْ سلف في الأرض قبله؛ وهذا قول ابن عباس، والحسن)(٢).

---

(١)" تفسير أبي السعود١/٨١: ٨٢".

(٢)" زاد المسير١/٦٠".

قلت: سواء قلنا إن هذه الخلافة المشار إليها في الآية السابقة هي عن الله سبحانه وتعالى أو عمّن كان في الأرض قبل خلق آدم أو عن بني آدم بعضهم بعضاً؛ فالمحصّلة واحدة للاتفاق على أن الله تعالى لم يخلق الخلق كافة إلا لعبادته كما قال تعالى:﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

وعبادته: هي طاعته على ألسنة رسله كما قال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ...﴾؛ الآية.

وقد(قال بعض المحققين: أجمع الأقوال الشارحة للرسالة الإلهية: إنها سفارة بين الحق والخلق؛ تُنبّه أولي الألباب على ما يقصر عنه عقولهم من صفات معبودهم، ومعادهم، ومصالح دينهم ودنياهم، ومستحثات تهديهم، ودوافع شبه ترديهم)[١].

قلت: فيظهر بذلك؛ أنه على الأقوال المختلفة: يؤول الأمر بهذه الخلافة المشار إليها في بدء قصص آدم عليه السلام إلى معنى العمل على عمارة الأرض بشرعه، والقيام بواجب عبوديته فيها أو تحقيق عبادة الله بالتزام طاعته، وامتثال شرعه، والإذعان لحكمه، والانقياد لتكليفه؛ لا محيد لها عن هذا سواء قلنا إنها خلافة عن الله أو إنها خلافة عمَّنْ سلف في الأرض قبل آدم عليه السلام أو إنها راجعة إلى كون بني آدم يخلف بعضُهم بعضاً.

قال الإمام الطبري- رحمه الله-:(فكان تأويل الآية على هذه الرواية التي ذكرناها عن ابن مسعود، وابن عباس: إني جاعلٌ في الأرض خليفة مني: يخلفني في الحكم بين خلقي؛ وذلك الخليفة هو آدم، **ومَنْ قام مقامه في طاعة الله، والحكم بالعدل بين خلقه**)[٢].

وقال البغوي- رحمه الله-:(والمراد بالخليفة ههنا: آدم؛ سمّاه خليفة لأنه خلف الجن؛ أي: جاء بعدهم، وقيل لأنه يخلفه غيره؛ والصحيح: **أنه خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه، وتنفيذ قضاياه**)[٣].

ـــــ فظهر- بجلاء- أن" الخلافة"؛ التي خُلِقَ لها آدم ثم مَنْ بعده؛ هي: إقامة أحكام الله في الأرض، وتنفيذ قضاياه؛ أي: عبادة الله بالتزام طاعته، وامتثال شرعه، والإذعان لحكمه، والانقياد لتكليفه.

---

(١)" التقرير والتحبير ١/٩".

(٢)" تفسير الطبري١/٢٠٠".

(٣)" تفسير البغوي١/٦٠".

ـــــــ ويؤكد هذا المعنى، ويوضحه: قوله تعالى بعد الأمر بالهبوط:﴿ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛[البقرة: ٣٨- ٣٩].

* وقوله تعالى- أيضاً-:﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾؛[طه: ١٢٣- ١٢٧].

ـــــــ وهي نصوص ظاهرة في أن الله سبحانه وتعالى مُنْزِلٌ هداه على آدم عليه السلام بعد إهباطه إلى الأرض:﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾،﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾؛ وليس هداه- قطعاً- إلا الشرع المنزل من أحكامه، وقضاياه؛ أي: تحقيق عبادة الله بالتزام طاعته، وامتثال شرعه، والإذعان لحكمه، والانقياد لتكليفه.

* جاء عن أبي العالية- رحمه الله- في قوله تعالى:﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى...﴾؛ الآية؛ قال:(الأنبياء، والرسل، والبيان)[(١)].

قال ابن جرير- رحمه الله-:(والهدى في هذا الموضع: البيان، والرشاد...؛ فإمّا يأتينكم مني يا معشر مَنْ أهبطته إلى الأرض من سمائي- وهو آدم، وزوجته*، وإبليس كما قد ذكرنا قبل في تأويل الآية التي قبلها-؛ إمّا يأتينكم مني بيانٌ من أمري، وطاعتي، ورشاد إلى سبيلي، وديني؛ فمَنْ اتبعه منكم: فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون)[(٢)].

ـــــــ والقول بأن" الخلافة" التي خُلِقَ لها آدم- ابتداءً-؛ هي: إقامة أحكام الله في الأرض، وتنفيذ قضاياه؛ أي: عبادة الله بالتزام طاعته، وامتثال شرعه، والإذعان لحكمه، والانقياد لتكليفه؛ هذا القول: هو مقتضى كون آدم عليه

---

(١)" تفسير الطبري١/٢٤٧"،" تفسير ابن كثير٣/١٦٩".

* معنى الآية أعمّ من جهة الْمَعْنِيّ بالهُدى المنزّل إذ المعني به- بعد آدم، وزوجه- كلُّ مَنْ يشاء الله خلقه على الأرض بعد الهبوط إليها من الثقلين: الجن، والإنس؛ وعلى رأس هذا الخلق العظيم ابتداءً: آدم، وزوجه؛ وهذا من الظهور بمكان، وإليه الإشارة في كلام أبي العالية أعلاه؛ والله أعلم.

(٢)" تفسير الطبري١/٢٤٦: ٢٤٧".

السلام نبياً من عند ربه سبحانه وتعالى.

* وقد قال تعالى:﴿ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛[آل عمران: ٣٣- ٣٤].

قال الواحدي- رحمه الله-:(﴿ إن الله اصطفى آدم﴾ بالنبوة، والرسالة)[١].

وقال ابن عطية- رحمه الله-:(وآدم: هو أبونا عليه السلام؛ اصطفاه الله تعالى بالإيجاد، والرسالة إلى بنيه، والنبوة، والتكليم حسبما ورد في الحديث)[٢].

* وقد جاء عن قتادة- رحمه الله- قوله في هذه الآية:﴿ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا...﴾؛ الآية؛ قال: "رجلان نبيان؛ اصطفاهما الله على العالمين"[٣].

* وعن الحسن- رحمه الله-؛ قال:" فضّلهم الله على العالمين بالنبوة على الناس كلهم؛ كانوا هم: الأنبياء، الأتقياء، المطيعين لربهم"[٤].

وقد(أخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر عن ابن عباس في قوله:﴿ إن الله اصطفى﴾؛ يعني: اختار من الناس لرسالته:﴿ آدم ونوحاً وآل إبراهيم﴾؛ يعني: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط؛﴿ وآل عمران على العالمين﴾؛ يعني: اختارهم للنبوة، والرسالة على عالمي ذلك الزمان؛ فهم ذرية بعضها من بعض؛ فكل هؤلاء من ذرية آدم ثم ذرية نوح ثم من ذرية إبراهيم)[٥].

ـــ وقد دلّ قوله تعالى في الآية:﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾؛ على أنّ ما جاء به آدم أولاً: هو عين ما جاء به نوحٌ ثم مَنْ جاء بعده من الأنبياء، والمرسلين ثانياً، وأنّ ما كان عليه نوحٌ ثم مَنْ جاء بعده من الأنبياء والمرسلين ثانياً: هو عين ما كان عليه آدم قبل نوح ثم مَنْ جاء بعده من الأنبياء والمرسلين أولاً؛ وليس هذا إلا عمارة الأرض بشرع

---

(١)" تفسير الواحدي١/٢٠٨".

(٢)" المحرر الوجيز١/٤٢٢".

(٣)" تفسير الطبري٣/٢٣٤".

(٤)" تفسير الطبري٣/٢٣٤"،" الدر المنثور٢/١٨٠".

(٥)" الدر المنثور٢/١٨٠".

الله؛ أي: العمل على تحقيق عبادة الله في الأرض بالتزام طاعته، وامتثال شرعه، والإذعان لحكمه، والانقياد لتكليفه.

* عن قتادة- رحمه الله-؛ قال:" قوله:﴿ ذرية بعضها من بعض﴾؛ يقول: في النية، والعمل، والإخلاص، والتوحيد له"[1].

قال ابن جرير- رحمه الله-:(وإنما جعل بعضهم من بعض في الموالاة في الدين، والمؤازرة على الإسلام، والحق كما قال جل ثناؤه:﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾، وقال في موضع آخر:﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾؛ يعني: أن دينهم واحد، وطريقتهم واحدة؛ فكذلك قوله:﴿ ذرية بعضها من بعض﴾؛ إنما معناه: ذرية دين؛ بعضها دين بعض، وكلمتهم واحدة، وملتهم واحدة في توحيد الله، وطاعته)[2].

* وقد جاء من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ؛ آدم فمَنْ سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول مَنْ تنشق عنه الأرض ولا فخر..."؛ الحديث[3].

*كما جاء من حديث أبي أمامة- رضي الله عنه-:" أن رجلاً قال: يا رسول الله؛ أنبيٌّ كان آدم؟؛ قال: نعم؛ مُكَلّم؛ قال: فكم كان بينه وبين نوح؟؛ قال: عشرة قرون"[4].

قلت: ومقتضى كون آدم نبياً: أنه كان على دين التوحيد؛ يَعمل به، ويَعمل له.

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(فالنبوة في الآدميين هي من عهد آدم عليه السلام؛ فإنه كان نبياً، وكان بنوه يعلمون

---

(١)" تفسير الطبري٣/٢٣٤: ٢٣٥"،" الدر المنثور٢/١٨٠".

(٢)" تفسير الطبري٣/٢٣٤".

(٣)" الترمذي٥/٣٠٨، ٥٨٧"،" أحمد٣/٢"؛ والحديث؛ قال عنه الترمذي:(حسن صحيح)، وصحّحه الألباني في:" صحيح الترمذي؛ ح: ٣٦١٥"؛ قلت: وللحديث شواهد عدة؛ انظر:" السلسلة الصحيحة٤/١٠٠"،" المسائل العقدية المتعلقة بآدم عليه السلام/٧٠٩: ٧١١".

(٤)" المستدرك٢/٢٨٨"،" ابن حبان١٤/٦٩"،" الأوسط١/١٢٨"،" الكبير٨/١١٨"،" تفسير ابن أبي حاتم٨/٢٦٩٦"،" تاريخ دمشق٧/٤٤٥، ٤٤٦"؛ والحديث: صحّحه ابن حبان، والحاكم؛ وقال:(هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه)، وقال عنه في:" المجمع١/١٩٦":(رجاله رجال الصحيح)، وقال في موضع آخر:" المجمع٨/٢١٠":(رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن خليد الحلبي؛ وهو ثقة)، وقد قال الحافظ ابن كثير: "البداية والنهاية١/١٠١":(قلت: وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه)؛ كما صحّحه الألباني في تعليقه على أحاديث:" المشكاة؛ ح: ٥٧٣٧".

قلت: وللحديث شاهد مشهور عن أبي ذر؛ انظر:" الدر المنثور١/١٢٦"،" المسائل العقدية المتعلقة بآدم عليه السلام/٧١١: ٧١٢".

نبوته، وأحواله بالاضطرار)[١].

وقد قال ابن عطية- رحمه الله-:(فإن بِعثة آدم عليه السلام بالتوحيد، وبثّ المعتقدات في بنيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفطر: يُوجب على كل أحد من العالم الإيمانَ، واتباعَ شريعة الله)[٢].

وقال- رحمه الله- كذلك-:(بَعثَ اللهُ آدم إلى ذريته ثم لم تخل الأرض من شريعة إلى ختم الرسالة بسيدنا محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم)[٣].

وهذا كله ظاهر في بيان أن خلافة آدم كانت؛ هي: عمارة الأرض بشرع الله؛ أي: العمل على تحقيق عبادة الله في الأرض بالتزام طاعته، وامتثال شرعه، والإذعان لحكمه، والانقياد لتكليفه.

ــــ وهو ما يتقرّر به- بجلاء- أن:" الإنسان" خُلق من حيث الأصل ليكون خليفةً من الله للعمل على تحقيق عبادة الله في الأرض بالتزام طاعته، وامتثال شرعه، والإذعان لحكمه، والانقياد لتكليفه.

* وقد قال الله تعالى:{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا }؛[الأحزاب: ٧٢].

والآية نصٌّ، ظاهر في أنّ الإنسانَ قد تحمّل:" الأمانة"- رأساً!- من الله سبحانه وتعالى.

وقد(أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الانباري في كتاب الأضداد عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله:{ إنّا عرضنا الأمانة}؛ الآية؛ قال: الأمانة: الفرائض)[٤].

(وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي العالية- رضي الله عنه- في قوله:{ إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض}؛ قال: الأمانة: ما أُمروا به، ونُهوا عنه)[٥].

(وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة- رضي الله عنه-:{ إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض

---

(١)" العقيدة الأصفهانية/١٢٥".

(٢)" المحرر الوجيز٣/٤٤٤".

(٣)" المحرر الوجيز٤/٤٦٠"؛ ونحوه تماماً في:" تفسير الثعالبي٤/١١".

(٤)" الدر المنثور٦/٦٦٨"؛ وانظر:" تفسير الطبري٢٢/٥٣: ٥٦".

(٥)" الدر المنثور٦/٦٦٨"؛ وانظر:" تفسير الطبري٢٢/٥٣: ٥٦".

والجبال}؛ قال: يعني به: الدِّين، والفرائض، والحدود)[١].

(وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن سعيد بن جبير- رضي الله عنه-:{ إنّا عرضنا الأمانة}؛ قال: الفرائض.

وأخرج الفريابي عن الضحاك- رضي الله عنه- في قوله:{ إنّا عرضنا الأمانة}؛ قال: الدِّين)[٢].

ـــــ والجملة الجامعة في:" الأمانة"؛ أنها: الرسالة الإلهية، وما احتوته من التكليف الشرعي.

قال ابن جزي- رحمه الله-:(الأمانة: هي التكاليف الشرعية من التزام الطاعات، وترك المعاصي...؛{ وحملها الإنسان}؛ أي: التَزَمَ الإنسان القيام بالتكاليف مع شدة ذلك، وصعوبته على الأجرام التي هي أعظم منه؛ ولذلك وصفه الله بأنه ظلوم، جهول؛ والإنسان هنا: جنس)[٣].

وقال الزمخشري- رحمه الله-:(وهو يريد بالأمانة: الطاعة؛ فَعَظَّم أمرَها، وفَخَّم شأنها...؛ والمراد بالأمانة: الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء)[٤].

ـــــ والآية مصرّحة بعظم شأن التكليف، وجليل قدره حتى(أنّ ما كُلّفه الإنسان بلغ من عِظَمه، وثقل محمله أنه عُرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام، وأقواه، وأشده أن يتحمله، ويستقل به: فأبى حمله، والاستقلال به، وأشفق منه)[٥].

قلت: وإذا كانت:" الأمانة"؛ التي حملها الإنسان هي: التكاليف الشرعية، والطاعة لله سبحانه وتعالى؛ فهي- إذاً-:" العبادة"!.

وقد قال الرازي- رحمه الله-:(العبادة: أمانةٌ بدليل قوله تعالى:{ إنّا عرضنا الأمانة على السموات}؛ الآية؛ وأداء الأمانة: واجبٌ عقلاً، وشرعاً بدليل قوله:{ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها}؛ وأداء الأمانة: صفةٌ من

---

(١)" الدر المنثور٦/٦٧٠"؛ وانظر:" تفسير الطبري٢٢/٥٣: ٥٦".

(٢)" الدر المنثور٦/٦٧١"؛ وانظر:" تفسير الطبري٢٢/٥٣: ٥٦".

(٣)" التسهيل٣/١٤٥".

(٤)" الكشاف٣/٥٧٣".

(٥)" الكشاف٣/٥٧٤"؛ وانظر للفائدة:" تفسير أبي السعود٧/١١٨".

صفات الكمال؛ محبوبةٌ بالذات)[1].

ـــــ وبناءً على ما سبق؛ يصحّ القول بأنّ الإنسانَ قد حَمَلَ:" العبادة"؛ أمانةً عظيمة في ذمّته؛ ائتمنه اللهُ عليها: لِيسأله عنها يوم الجزاء.

(١)" التفسير الكبير١/٢٠١"؛ ونحوه في:" روح المعاني١/٨٨"،" تفسير ابن زمنين٣/٤١٥".

الأصل الثالث

عبادة الله

هي غاية الإنسان التي خُلق لها

* وقد قال الله تعالى:{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}؛[الذاريات: ٥٦: ٥٨].

ففي هذه الجملة القرآنية، والآية الربانية: حدّد اللهُ سبحانه وتعالى بأجلى عبارة، وأوضح بيان الغايةَ من خَلْق الخلق أجمعين؛ فقال:{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ...}؛ الآية.

(قال ابن عباس، وعلي بن أبي طالب- رضي الله عنهما-: المعنى: ما خلقت الجن، والإنس إلا لآمرهم بعبادتي، وليقروا لي بالعبودية...)[١].

* وعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أيضاً- أنه قال:"{ إلا ليعبدون}؛ أي: إلا لآمرهم أن يعبدوني، وأدعوهم إلى عبادتي"[٢].

قال ابن كثير- رحمه الله-:(أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم)[٣].

فـ(معنى قوله:{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}؛ أي: لآمرهم بالعبادة، وأوجبها عليهم؛ فعبّر عن ذلك بثمرة الأمر، ومقتضاه)[٤].

ـــــ وقد بُنِيتْ هذه الجملة القرآنية بناء لُغوياً هو نهاية الإحكام في إفادة أنها غاية واحدة لا غير تلك التي خُلق لها الخلق.

(١)" المحرر الوجيز٥/١٨٢".

(٢)" تفسير البغوي٤/٢٣٥".

(٣)" تفسير ابن كثير٤/٢٣٩"؛ ونحوه في:" أضواء البيان٧/٤٤٥".

(٤)" المحرر الوجيز٣/٢١٦".

فقوله:{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}؛ جاء جامعاً بين النفي، والاستثناء ممّا يفيد الحصر، والقصر ضرورةً.

والاستثناء هنا؛ هو استثناء مفرّغ من المفعول لأجله؛ أي: وما خلقت الجن، والإنس لشيء من الأشياء أو لغاية من الغايات إلا للعبادة[1].

فالبناء اللُّغوي لهذه الجملة القرآنية يُبيّن(أن الخلق ليس إلا للعبادة؛ فالمقصود من إيجاد الإنسان: العبادة)[2].

قال الزمخشري- رحمه الله-:(أي: وما خلقت الجن، والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أُرد من جميعهم إلا إيّاها)[3].

فهي إذاً غاية واحدة لا غير؛ وإنما صح الحصر، والقصر هنا(لأنه لما كان هذا المقصود أجلّ المقاصد: كانت سائر المقاصد بالنسبة إليه كالعدم)[4].

قال الرازي- رحمه الله-:(وذلك لأن أهم المهمات للعبد أن يستنير قلبه بمعرفة الربوبية ثم بمعرفة العبودية لأنه إنما خُلق لرعاية هذا العهد كما قال:{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون})[5].

وقال السعدي- رحمه الله-:(هذه الغاية التي خلقَ اللهُ الجن، والإنس لها، وبُعث جميع الرسل يدعون إليها؛ وهي: عبادته المتضمنة لمعرفته، ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عمّا سواه؛ وذلك متوقف على معرفة الله تعالى؛ فإن تمام العبادة: متوقفٌ على المعرفة بالله بل كلما ازداد العبد معرفة بربه: كانت عبادته أكمل؛ فهذا الذي خلق اللهُ المكلفين لأجله...)[6].

* وقد قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}؛[البقرة: ٢١- ٢٢].

---

(١) انظر:" الفتاوى لابن تيمية٨/١٨٦: ١٩٠".

(٢)" التفسير الكبير٢٨/١٩٨".

(٣)" الكشاف٤/٤٠٨: ٤٠٩".

(٤)" التفسير الكبير٣٢/٨٣".

(٥)" التفسير الكبير١/٢١٧".

(٦)" تفسير السعدي/٨١٣".

وقوله تعالى هنا:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}:(أمرٌ لكل الناس بأمر عام؛ وهو العبادة الجامعة لامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره؛ فأمرهم تعالى بما خلقهم له؛ قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون})(١).

قال ابن جزي- رحمه الله-:(لَمّا قدّم اختلاف الناس في الدين، وذكر ثلاث طوائف- المؤمنين، والكافرين، والمنافقين-: أَتْبَعَ ذلك بدعوة الخلق إلى عبادة الله؛ وجاء بالدعوة عامة للجميع لأن النبي صلى الله عليه وسلم بُعثَ إلى جميع الناس:{ اعبدوا ربكم}؛ يدخل فيه: الإيمان به سبحانه، وتوحيده، وطاعته؛ فالأمر بالإيمان به لمن كان جاحداً، والأمر بالتوحيد لمن كان مشركاً، والأمر بالطاعة لمن كان مؤمناً؛{ لعلكم}: يتعلق بـ" خلقكم"؛ أي: خلقكم لتتقوه كقوله:{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}؛ أو بفعل مقدّر من معنى الكلام؛ أي: دعوتكم إلى عبادة الله لعلكم تتقون)(٢).

ـــــــ ولا يحتاج الإنسان إلى كثير جهد وهو يُطالع القرآن الكريم لحصول العلم، واليقين بأن هذا المقصد- عبادة الله-؛ هو المقصد الأساس في الرسالة الإلهية لعموم الأنبياء، والمرسلين الذين قصّ الله علينا قَصصهم في القرآن الكريم؛ ومن ذلك:

في قَصص نوح عليه السلام:

* قال تعالى:{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ}؛[هود: ٢٥- ٢٦].

* وقال تعالى في سورة الأعراف:{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}؛[الأعراف: ٥٩].

* وقال تعالى- أيضاً- في سورة المؤمنون:{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ}؛[المؤمنون: ٢٣].

---

(١)" تفسير السعدي/٤٥".

(٢)" التسهيل لعلوم التنزيل١/٤٠"؛ ونحوه في:" التفسير الكبير٢/٧٥"،" الكشاف١/١٢٠".

* وقال تعالى- كذلك- في سورة نوح:{ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ}؛[نوح: ١- ٣].

وفي قصص هود عليه السلام:

* قال تعالى:{ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ}؛[هود: ٥٠].

* وقال تعالى في سورة الأعراف:{ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}؛[الأعراف: ٦٥].

وفي قصص صالح عليه السلام:

* قال تعالى:{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}؛[هود: ٦١].

* وقال تعالى في سورة الأعراف:{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}؛[الأعراف: ٧٣].

* وقال تعالى- أيضاً- في سورة النمل:{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ}؛[النمل: ٤٥].

وفي قصص شعيب عليه السلام:

* قال تعالى:{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...}؛[هود: ٨٤].

* وقال تعالى في سورة الأعراف:{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}؛[الأعراف: ٨٥].

* وقال تعالى- كذلك- في سورة العنكبوت: { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}؛ [العنكبوت: ٣٦].

فالدعوة إلى عبادة الله: هي دعوة واحدة، وصيحة متكرّرة على ألسن هؤلاء الرسل جميعاً: { يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}.

ــــــ وهي نفس الدعوة، وعين الصيحة التي حكاها الله تعالى- كذلك- على ألسن غير مَنْ سبقوا من الأنبياء، والمرسلين صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين:

* فقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}؛ [العنكبوت: ١٦- ١٧].

* وقال تعالى: { وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}؛ [البقرة: ١٣٢- ١٣٣].

* وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}؛ [المائدة: ٧٢].

ــــــ والآيات المبيّنة لأمر كل نبي من الأنبياء، والمرسلين- على وجه التخصيص- لقومه بعبادة الله وحده: أكثرُ من أن تحصر؛ فـ(مثل هذا فى القرآن كثير بل هذا مقصود القرآن ولبّه، وهو مقصود دعوة الرسل كلهم، وله خُلق الخلق كما قال تعالى: { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون})[1].

* وقد قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ}؛ [الزمر: ١١- ١٢].

(١)" الفتاوى لابن تيمية١٥٢/٢٦".

* وقال تعالى- أيضاً-:{ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ}؛[الرعد: ٣٦].

قلت:(ومثل هذا فى القرآن كثير بل هذا مقصود القرآن، ولبّه، وهو مقصود دعوة الرسل كلهم، وله خُلق الخلق كما قال تعالى:{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون})[١].

* وقد قال الله تعالى على وجه العموم التام، الشامل لجميع الرسل بلا استثناء:{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}؛[النحل: ٣٦].

* وقال تعالى- أيضاً-:{ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}؛ [الزخرف: ٤٥].

* وقال تعالى- كذلك-:{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}؛ [الأنبياء: ٢٥].

وقد(أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة- رضي الله عنه- في قوله:{ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}؛ قال:" أُرْسِلتْ الرسلُ بالإخلاص، والتوحيد لله؛ لا يقبل منهم حتى يقولوه، ويقروا به؛ والشرائع تختلف: في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي القرآن شريعة؛ حلال، وحرام؛ فهذا كله في الإخلاص لله، وتوحيد الله")[٢].

- والاستثناء في قوله:{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}؛ هو استثناء مفرّغ ممّا يُوحي بأن الرسل لم يُرسلوا إلا لهذه الغاية لا غير؛ ممّا يجعل هذه الآية متطابقة في دلالتها- تماماً- مع قوله الله تعالى:{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}.

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(ففاتحة دعوة الرسل: الأمر بالعبادة؛ قال تعالى:{ يا آيها الناس اعبدوا ربكم الذي

---

(١)" الفتاوى لابن تيمية٢٦/١٥٢".

(٢)" الدر المنثور٥/٦٢٣: ٦٢٤"،" تفسير الطبري١٧/١٥".

خلقكم والذين من قبلكم})[1].

وقال- رحمه الله- أيضاً-:(فإن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لذلك، وبه أنزل الكتب، وبه أرسل الرسل، وعليه جاهد الرسول، والمؤمنون؛ قال الله تعالى:{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، وقال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}، وقال:{ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}؛ وقد أخبر عن جميع المرسلين أن كلاً منهم يقول لقومه:{ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}...)[2].

وقد قال الإمام الصنعاني- رحمه الله-:(الأصل الثاني: أن رسل الله، وأنبياءه من أولهم إلى آخرهم: بُعثوا لدعاء العباد إلى توحيد الله بتوحيد العبادة، وكلُّ رسول أول ما يقرع به أسماعَ قومه قولُه:{ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}،{ أن لا تعبدوا إلا الله}،{ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون}؛ وهذا الذي تضمنه قول:" لا إله إلا الله"؛ فإنما دعت الرسل أممها إلى قول هذه الكلمة، واعتقاد معناها؛ لا مجرد قولها باللسان؛ ومعناها: هو إفراد الله بالإلهية، والعبادة...، وإذا تقررتْ هذه الأمور؛ فاعلم أن الله تعالى بعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم: يدعون العباد إلى إفراد الله تعالى بالعبادة...)[3].

ـــــ ومن ثم؛ فتحقيق العبودية لله وحده؛ هي: رسالة الرسل أجمعين، ودعوتهم الواحدة التي تناوبوا عليها؛ فـ(الأنبياء عليهم السلام على كثرة عددهم، واختلاف أعصارهم، وتباين أنسابهم، وتباعد مساكنهم: قد اتفقوا جميعاً على الدعاء إلى الله عز وجل)[4]؛(ولهذا: كان دين الأنبياء واحداً وإنْ كانت شرائعهم متنوعة)[5].

* وقد جاء من حديث أبي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:" أنا أَوْلَى الناس بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ"[6].

---

(١)" الفتاوى لابن تيمية٢/١٣".

(٢)" الفتاوى لابن تيمية٢٨/٦١"؛ ونحوه في:" ٢/١٤، ١٠/١٧٨، ٢٠/١١٥".

(٣)" تطهير الاعتقاد/٥: ١٤".

(٤)" إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع/٢٥".

(٥)" الفتاوى لابن تيمية٢٦/٢٥".

(٦)" البخاري٣/١٢٧٠".

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(فدينهم واحد؛ وهو: عبادة الله وحده لا شريك له؛ وهو يُعبد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت؛ وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت)(١).

ـــــ وقد ثبت من حديث معاذ- رضي الله عنه-؛ قال:"كنتُ رِدْف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار- يُقال له عفير-؛ فقال: يا معاذ؛ هل تدري حقَّ الله على عباده، وما حق العباد على الله؟؛ قلتُ: الله ورسوله أعلم؛ قال: فإن حق الله على العباد: أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئاً؛ وحق العباد على الله: أن لا يعذب مَنْ لا يشرك به شيئاً، فقلتُ: يا رسول الله؛ أفلا أبشر به الناس؟؛ قال: لا تبشرهم فيتكلوا"(٢).

* وفي روايةٍ عن معاذ بن جبل- رضي الله عنه-؛ قال:" بينا أنا رديف النبي صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا آخرة الرَّحل؛ فقال: يا معاذ؛ قلتُ: لبيك رسول الله، وسعدَيْك ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ؛ قلتُ: لبيك رسول الله، وسعدَيْك ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ؛ قلتُ: لبيك رسول الله، وسعدَيْك؛ قال: هل تدري ما حقُّ الله على عباده؟؛ قلتُ: الله ورسوله أعلم؛ قال: حقُّ الله على عباده: أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئاً ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل؛ قلتُ: لبيك رسول الله، وسعدَيْك؛ فقال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟؛ قلتُ: الله ورسوله أعلم؛ قال: حقُّ العباد على الله: أن لا يعذبهم"(٣).

* وفي لفظٍ عن معاذ بن جبل- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" يا معاذ؛ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟؛ قال: الله ورسوله أعلم؛ قال: أن يُعْبَدَ الله، ولا يُشرك به شيءٌ؛ قال: أتدري ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك؟؛ فقال: الله ورسوله أعلم؛ قال: أن لا يعذبهم"(٤).

والحديث برواياته المختلفة*: مصرّحٌ بأنّ عبادة الله وحده: واجبٌ، لازم، ثابت، مستقر، خالص لله في رقاب عباده؛ وهو ما يعني: أن عبادة الله؛ هي: الغاية المقصودة من العباد؛ فالحديث- تماماً- كقوله تعالى:{ وما خلقت

---

(١)" اقتضاء الصراط المستقيم/٤٥٥".

(٢)" البخاري٣/١٠٤٩"،" مسلم١/٥٨".

(٣)" البخاري٥/٢٢٢٤"،" مسلم١/٥٨".

(٤)" مسلم١/٥٩".

* انظر في الروايات المختلفة لهذا الحديث العظيم:" الإيمان لابن منده١/٢٣٣: ٢٤٥".

الجن والإنس إلا ليعبدون}(١).

(فالله تعالى: مُستَحقٌّ أن يُعبد، لا يُشرك به شيءٌ؛ وهذا هو أصل التوحيد الذي بَعث اللهُ به الرسلَ، وأُنزلت به الكتبُ؛ قال تعالى:{ واسأل مَنْ أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون}، وقال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون})(٢).

(قال الترمذي، الحكيم، أبو عبد الله، محمد بن علي: إن الله تعالى خلق الخلق عبيداً ليعبدوه: فيثيبهم على العبادة، ويعاقبهم على تركها؛ فإنْ عَبَدُوه؛ فهم اليوم له: عبيدٌ، أحرار، كرام من رق الدنيا، ملوك في دار الإسلام؛ وإنْ رفضوا العبودية؛ فهم اليوم: عبيد، أُبّاق، سقاط، لئام؛ وغداً: أعداء في السجون بين أطباق النيران)(٣).

* وقد ثبت- كذلك- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما-:" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بَعَثَ معاذاً- رضي الله عنه- على اليمن؛ قال: إنك تقدم على قوم أهل كتاب؛ فليكن أولَ ما تدعوهم إليه: عبادةُ الله؛ فإذا عرفوا الله: فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم؛ فإذا فعلوا: فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم، وترد على فقرائهم؛ فإذا أطاعوا بها: فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس"(٤).

ـــ وفي الحديث التصريح بأن:" عبادة الله"؛ هي: أول الواجبات التي تجب على العباد، والتي يُطالبون بها.

قال ابن القيم- رحمه الله-:(التوحيد: أول دعوة الرّسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى؛ قال تعالى:{ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}، وقال هود لقومه: {اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}، وقال صالح لقومه:{ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}، وقال شعيب لقومه: {اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}، وقال تعالى:{ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}.

فالتوحيد: مفتاح دعوة الرسل؛ ولهذا قال النبي لرسوله معاذ بن جبل- رضي الله عنه-؛ وقد بعثه إلى اليمن:" إنك تأتي قوماً أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله وحده؛ فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول

---

(١) انظر:" التحفة العراقية لابن تيمية/٤٤".

(٢)" اقتضاء الصراط المستقيم/٤٤٦".

(٣)" تفسير القرطبي١٢/١٥٦".

(٤)" البخاري٢/٥٢٩"،" مسلم١/٥١".

الله: فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة"؛ وذكر الحديث)[1].

ــــ ونختم الكلام في هذا الأصل بذكر مبحث لطيف سطّره يراع الرازي- رحمه الله- حيث يقول:

(اعلم؛ أنه سبحانه بَيَّن أنّ له معك عهداً، ولك معه عهداً؛ وبَيّن أنك متى تَفي بعهدك: فإنه سبحانه يفي- أيضاً- بعهده؛ فقال:{ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم}- البقرة: ٤٠-؛ ثم في سائر الآيات: فإنه أفرد عهدك بالذكر، وأفرد عهد نفسه- أيضاً- بالذكر:

أمّا عهدك؛ فقال فيه:{ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا}- البقرة: ١٧٧-، وقال:{ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون}- المؤمنون: ٨-، وقال:{ يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود}- المائدة: ١-، وقال:{ لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون}- الصف: ٣٢-.

وأمّا عهده سبحانه وتعالى؛ فقال فيه:{ ومن أوفى بعهده من الله}- التوبة: ١١١-؛ ثم بَيّن كيفية عهده إلى أبينا آدم فقال:{ ولقد عهدنا إلى من ربه قبل فنسى ولم نجد له عزماً}- طه: ١١٥-؛ ثم بَيّن كيفية عهده إلينا؛ فقال:{ألم أعهد إليكم يا بني آدم}- يس: ٦٠-؛ ثم بَيّن كيفية عهده مع بني إسرائيل؛ فقال:{ إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول}- آل عمران: ١٨٣-؛ ثم بَيّن كيفية عهده مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فقال:{ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل}- البقرة: ١٢٥-؛ ثم بَيّن في هذه الآية أن عهده لا يصل إلى الظالمين؛ فقال:{ لا ينال عهدي الظالمين}؛ فهذه المبالغة الشديدة في هذه المعاهدة: تقتضي البحث عن حقيقة هذه المعاهدة؛ فنقول:

العهد المأخوذ عليك ليس إلا عهد الخدمة، والعبودية؛ والعهد الذي التزمه الله تعالى من جهته ليس إلا عهد الرحمة، والربوبية ثم إن العاقل إذا تأمّل في حال هذه المعاهدة: لم يجد من نفسه إلا نقض هذا العهد، ومن ربه إلا الوفاء بالعهد؛ فلنشرع في معاقد هذا الباب؛ فنقول:

أول إنعامه عليك: إنعام الخلق، والإيجاد، والإحياء، وإعطاء العقل، والآلة؛ والمقصود من كل ذلك: اشتغالك بالطاعة، والخدمة، والعبودية على ما قال:{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، ونزّه نفسَه عن أن يكون هذا الخلق، والإيجاد منه على سبيل العبث؛ فقال:{ وما خلقنا السماء والارض وما بينها لاعبين}،{ ما خلقناهما إلا

[1] " مدارج السالكين٣/٤٤٣".

بالحق}، وقال- أيضاً-: { وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا}، وقال: { أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون}؛ ثم بيّن على سبيل التفصيل: ما هو الحكمة في الخلق، والإيجاد؛ فقال: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}.

فهو سبحانه وَفَّى بعهد الربوبية حيث خلقك، وأحياك، وأنعم عليك بوجوه النعم، وجعلك عاقلاً، مميّزاً؛ فإذا لم تشتغل بخدمته، وطاعته، وعبوديته: فقد نقضت عهد عبوديتك مع أن الله تعالى وَفَّى بعهد ربوبيته.

وثانيها: أن عهد الربوبية يقتضي إعطاء التوفيق، والهداية؛ وعهد العبودية منك يقتضي الجد، والاجتهاد في العمل؛ ثم إنه وَفَّى بعهد الربوبية فإنه ما ترك ذرةً من الذرات إلا وجعلها هاديةً لك إلى سبيل الحق؛ { وإن من شيء إلا يسبح بحمده}- الإسراء: ٤٤-؛ وأنت ما وَفَّيتَ- البتة- بعهد الطاعة، والعبودية.

وثالثها: أن نعمة الله بالإيمان أعظم النعم؛ والدليل عليه أن هذه النعمة لو فاتتك لكنت أشقى الأشقياء أبدَ الآبدين، ودهر الداهرين ثم هذه النعمة من الله تعالى لقوله: { وما بكم من نعمة فمن الله}- النحل: ٥٣-؛ ثم مع أن هذه النعمة منه فإنه يشكرك عليها؛ وقال: { فأولئك كان سعيهم مشكوراً}- الإسراء: ١٩-؛ فإذا كان الله تعالى يشكرك على هذه النعمة: فَبِأنْ تشكره على ما أعطى من التوفيق، والهداية: كان أولى؛ ثم إنك ما أتيت إلا بالكفران على ما قال قتل الإنسان ما أكفره}- عبس: ١٧-؛ فهو تعالى وَفَّى بعهده، وأنت نقضتَ عهدك.

ورابعها: أن تنفق نعمه في سبيل مرضاته؛ فعهدُه معك أن يُعطيك أصناف النعم: وقد فعل، وعهدك معه أن تصرف نعمه في سبيل مرضاته: وأنت ما فعلت ذلك؛ { كلا إن الإنسان ليطغى أن رءاه استغنى}- العلق: ٦ ٧-.

وخامسها: أنعم عليك بأنواع النعم لتكون محسناً إلى الفقراء؛ { وأحسنوا إن الله يحب المحسنين}؛ ثم إنك توسلتَ به إلى إيذاء الناس، وإيحاشهم؛ { الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل}- الحديد: ٢٤-.

وسادسها: أعطاك النعم العظيمة لتكون مقبلاً على حمده؛ وأنت تحمد غيره!؛ فانظر إلى السلطان العظيم: لو أنعم عليك بخلعة نفيسة ثم إنك في حضرته: تُعرض عنه، وتَبقى مشغولاً بخدمة بعض الأسقاط؛ كيف تستوجب الأدب، والمقت؟!؛ فكذا ههنا.

واعلم أنّا لو اشتغلنا بشرح كيفية وفائه سبحانه بعهد الإحسان والربوبية، وكيفية نقضنا لعهد الإخلاص والعبودية:

لما قدرنا على ذلك؛ فإنّا من أول الحياة إلى آخرها: ما صرنا منفكين لحظة واحدة من أنواع نعمه على ظاهرنا وباطننا؛ وكلُّ واحدة من تلك النعم تستدعي شكراً على حدة، وخدمة على حدة؛ ثم أنّا ما أتينا بها بل ما تنبهنا لها، وما عرفنا كيفيتها، وكميتها؛ ثم إنه سبحانه على تزايد غفلتنا، وتقصيرنا: يزيد في أنواع النعم، والرحمة، والكرم؛ فكنّا من أول عمرنا إلى آخره لا نزال نتزايد في درجات النقصان، والتقصير، واستحقاق الذم: وهو سبحانه لا يزال يزيد في الإحسان، واللطف، والكرم)[1].

(١)" التفسير الكبير٤/٤٠: ٤٢".

الأصل الرابع

الإسلام هو دين الإنسان

ـــــــ وكون الإسلام؛ هو: دين الإنسان: حقيقةٌ شرعية، مُسلّمة ضرورية من وجوه عدّة:

الوجه الأول: أن الإسلام؛ هو: الفطرة التي فطر اللهُ الإنسانَ عليها:

* قال الله تعالى:{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}؛[الروم: ٣٠].

* قال ابن زيد- رحمه الله-:"{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}؛ قال: الإسلام مذ خلقهم الله من آدم جميعاً يُقرّون بذلك؛ وقرأ:{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا}؛ قال: فهذا قول الله:{ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ}"[١].

* وعن مجاهد- رحمه الله-:"{ فطرة الله}؛ قال: الإسلام"[٢].

* وعن عكرمة- رحمه الله-:"{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}؛ قال: الإسلام"[٣].

ففي الآية الآنفة:(يقول تعالى: فَسَدِّد وجهَك، واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية- ملة إبراهيم- الذي هداك اللهُ لها، وكمّلها لك غاية الكمال؛ وأنت مع ذلك: لازمٌ فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها؛ فإنه تعالى فطر خلقَه على معرفته، وتوحيده، وأنه لا إله غيره...

وقوله تعالى:{ لا تبديل لخلق الله}؛ قال بعضهم: معناه: لا تبدلوا خلق الله؛ فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها؛ فيكون خبراً بمعنى الطلب كقوله تعالى:{ ومَنْ دخله كان آمناً}؛ وهو معنى حسن، صحيح؛ وقال آخرون: هو خبرٌ على بابه؛ ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة؛ لا يُولد أحدٌ

---

(١)" تفسير الطبري٢١/٤٠".

(٢)" المرجع السابق".

(٣)" تفسير الطبري٢١/٤١".

إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك؛ ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد في قوله:{ لا تبديل لخلق الله}؛ أي: لدين الله...

وقوله تعالى:{ ذلك الدين القيم}؛ أي: التمسك بالشريعة، والفطرة السليمة؛ هو الدين القيم، المستقيم)(١).

قال السعدي- رحمه الله-:(يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال، وإقامة دينه؛ فقال:{ فأقم وجهك}؛ أي: انصبه، ووَجِّهه{ للدين}؛ الذي هو الإسلام، والإيمان، والإحسان بأن تتوجّه بقلبك، وقصدك، وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، ونحوها؛ وشرائعه الباطنة كالمحبة، والخوف، والرجاء، والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة، والباطنة بأن تعبد الله فيها كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك؛ وخَصّ الله إقامة الوجه لأن إقبال الوجه: تَبعٌ لإقبال القلب؛ ويترتب على الأمرين: سعي البدن؛ ولهذا قال:{ حنيفاً}؛ أي: مقبلاً على الله في ذلك مُعرضاً عمّا سواه؛ وهذا الأمر الذي أمرناك به؛ هو:{ فطرة الله فطر الناس عليها}؛ ووضعَ في عقولهم حُسنَها، واستقباح غيرها؛ إن جميع أحكام الشرع الظاهرة، والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلّهم الميلَ إليها؛ فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق؛ وهذا حقيقةُ الْفَطْر؛ ومَنْ خرج عن هذا الأصل: فلعارض عرض لفطرته أفسدها...)(٢).

* وفي قول الله تعالى:{ صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ}؛[البقرة: ١٣٨].

قال الرازي- رحمه الله-:(الصبغ: ما يُلون به الثياب؛ ويُقال: صبغ الثوب، يصبغه- بفتح الباء، وكسرها، وضمها؛ ثلاث لغات- صَبغاً- بفتح الصاد، وكسرها؛ لغتان-؛ والصِبغة: فِعلة من صَبغ كالجِلسة من جَلس؛ وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ ثم اختلفوا في المراد بصبغة الله على أقوال:

الأول: أنه دين الله؛ وذكروا في أنه لِمَ سُمّي دينُ الله بصبغة الله وجوه؛ أحدها: أن بعض النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية؛ ويقولون: هو تطهير لهم؛ وإذا فعل الواحد بولده ذلك؛ قال: الآن صار نصرانياً؛ فقال الله تعالى: اطلبوا صبغةَ الله؛ وهي: الدين، والإسلام لا صبغتهم، والسبب في إطلاق لفظ الصبغة على الدين طريقة المشاكلة...

---

(١)" تفسير ابن كثير٣/٤٣٣: ٤٣٤".

(٢)" تفسير السعدي/٦٤١".

وثانيها: اليهود تصبغ أولادها يهوداً، والنصارى تصبغ أولادها نصارى؛ بمعنى يلقونهم فيصبغونهم بذلك لما يشربون في قلوبهم عن قتادة؛ قال ابن الأنباري: يُقال: فلان يَصبغ فلاناً في الشيء؛ أي: يُدخله فيه، ويُلزمه إياه كما يَجعل الصبغ لازماً للثواب...

وثالثها: سُمّي الدين صبغة لأن هيئته تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة، والصلاة؛ قال الله تعالى:{ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود}.

ورابعها: قال القاضي: قوله:{ صبغة الله}؛ متعلق بقوله:{ قولوا آمنا بالله} إلى قوله:{ ونحن له مسلمون}؛ فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صبغة الله تعالى ليبين أن المباينة بين هذا الدين الذي اختاره الله، وبين الدين الذي اختاره المبطلُ ظاهرة جلية كما تظهر المباينة بين الألوان، والأصباغ لذي الحس السليم.

القول الثاني: أن صبغة الله فطرتُه؛ وهو كقوله:{ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله}؛ ومعنى هذا الوجه أن الإنسان موسوم في تركيبه، وبنيته بالعجز، والفاقة، والآثار الشاهدة عليه بالحدوث، والافتقار إلى الخالق؛ فهذه الآثار كالصّبغة له، وكالسّمة اللازمة...)[1].

والمتأمّل في القولين- مع استحضار مآخذ القول الأول في تسمية" الدّين"؛ صبغة الله-: يذهب- والله أعلم- إلى أن الاختلاف إنما هو اختلاف ألفاظ مع كون المعنى واحداً؛ فالصبغة؛ هي: دين الإسلام؛ والذي هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ فأين الاختلاف؟!.

* وقد جاء عن مجاهد- رحمه الله- في قول الله:{ صبغة الله}؛ قال:" فطرة الله التي فطر الناس عليها".

* وعنه؛ قال:" الصبغة: الفطرة".

* وعنه- أيضاً-؛ قال: صبغة الله: الإسلام؛ فطرة الله التي فطر الناس عليها".

* وقال ابن جريج: قال لي عبد الله بن كثير:" صبغة الله؛ قال: دين الله؛ ومن أحسن من الله ديناً؛ قال هي فطرة الله"[2].

قال الطبري- رحمه الله-:(ومَنْ قال هذا القول: فَوجَّه الصبغة إلى الفطرة؛ فمعناه: بل نتّبع فطرة الله، وملته التي

---

(١)" التفسير الكبير٤/٧٨: ٧٩".

(٢) انظر هذه الآثار:" تفسير الطبري١/٥٧١"،" الدر المنثور١/٣٤٠".

خلق عليها خلقه؛ وذلك الدين القيم)[١].

وقال البغوي- رحمه الله- بعد ذكر القول الأول:(وقال مجاهد: فطرة الله؛ وهو قريب من الأول...)[٢].

وقد قال الرازي- رحمه الله-:(قال القاضي: مَنْ حَمَلَ قولَه:{ صبغة الله}؛ على الفطرة فهو مقارب في المعنى لقول مَنْ يقول: هو دين الله لأن الفطرة التي أُمروا بها هو الذي تقتضيه الأدلة من عقل، وشرع؛ وهو الدين أيضاً...)[٣].

ولذا؛ جَعَلَ القولين قولاً واحداً: القاضي ابنُ عطية؛ فقال- رحمه الله-:(وصبغة الله: شريعته، وسنته، وفطرته)[٤].

ـــــ وقد أكّدت السنة ما جاء به كتابُ الله من فَطْرِ الخلق على معرفة الله، وعبادته، والتسليم لدينه في غير ما حديث؛ ومن ذلك:

* الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ما من مولود إلا يولد على الفطرة: فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تُحسّون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة- رضي الله عنه-:{ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم}"[٥].

ومن ألفاظ الإمام مسلم لهذا الحديث:

* " مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَهُوَ عَلَى الْمِلَّةِ".

* " إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهُ لِسَانُهُ".

* " لَيْسَ مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعَبِّرَ عَنْهُ لِسَانُهُ".

* " مَنْ يُولَدُ يُولَدُ عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ"[٦].

---

(١)" تفسير الطبري١/٥٧٢".

(٢)" تفسير البغوي١/١٢١".

(٣)" التفسير الكبير٤/٧٨: ٧٩".

(٤)" المحرر الوجيز١/٢١٦".

(٥)" البخاري١/٤٥٦":(كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلّى عليه...، ح: ١٢٩٢)- وأخرجه البخاري في أكثر من موضع-،" مسلم٤/٢٠٤٧":(كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة...، ح: ٢٦٥٨).

(٦) انظر:" صحيح مسلم٤/٢٠٤٧: ٢٠٤٨".

وقد قال الإمام البخاري- رحمه الله-:(والفطرة: الإسلام)[1].

وقال الإمام أحمد(في رواية الميموني: الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها؛ فقال له الميموني: الفطرة الدين؟!؛ قال: نعم.

وقد نصّ في غير موضع: أن الكافر إذا مات أبواه أو أحدهما: حكم بإسلامه؛ واستدل بالحديث:" كل مولود يُولد على الفطرة"؛ فَفَسّر الحديث بأنه يولد على فطرة الإسلام كما جاء ذلك مصرحاً به في الحديث؛ ولو لم يكن ذلك معناه عنده لما صح استدلاله)[2].

قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-:(وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة: الإسلام؛ قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف؛ وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى:{ فطرة الله التي فطر الناس عليها}؛ الإسلام؛ واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب:" اقرؤوا إن شئتم:{ فطرة الله التي فطر الناس عليها}"، وبحديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه:" أني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم"، الحديث؛ وقد رواه غيره فزاد فيه:" حنفاء مسلمين"، ورجّحه بعض المتأخرين بقوله تعالى:{ فطرة الله}؛ لأنها إضافة مدح وقد أمر نبيه بلزومها: فعلم أنها الإسلام)[3].

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(قوله:" كل مولود يولد على الفطرة: فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"؛ فالصواب: أنها فطرة الله التى فطر الناس عليها؛ وهي: فطرة الإسلام؛ وهى الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال: {ألست بربكم قالوا بلى}؛ وهى: السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة؛ فإن حقيقة الإسلام أن يستسلم لله لا لغيره؛ وهو معنى لا إله إلا الله؛ وقد ضرب رسولُ الله مثل ذلك؛ فقال:" كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء؛ هل تحسون فيها من جدعاء"؛ بَيّن أن سلامة القلب من النقص كسلامة البدن، وأن العيب حادث طارىء)[4].

* وحديث عياض بن حمار المجاشعي- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال ذات يوم في

---

(١)" صحيح البخاري٤/١٧٩٢".

(٢)" أحكام أهل الذمة٢/٩٥١".

(٣)" فتح الباري٣/٢٤٨".

(٤)" الفتاوى٤/٢٤٥".

خطبته:" ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم ممّا علمني يومى هذا: كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً..."؛ الحديث(١).

ففي الحديث:(أخبر سبحانه أنه إنما فَطَر عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه، والخضوع له، والذل له، وكمال طاعته وحده دون غيره؛ وهذا من الحق الذي خُلقتْ له، وبه قامت السموات والأرض وما بينهما، وعليه قام العالم، ولأجله: خُلقتْ الجنة والنار، ولأجله: أرسل رسلَه، وأنزل كتبه، ولأجله: أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره؛ فكونه سبحانه أهلاً أن يُعبد، ويُحب، ويُحمد، ويُثنى عليه: أمرٌ ثابتٌ له لذاته؛ فلا يكون إلا كذلك كما أنه الغني، القادر، الحي، القيوم، البصير؛ فهو سبحانه: الإله، الحق، المبين؛ والإله: هو الذي يَستحق أن يُؤله: محبةً، وتعظيماً، وخشيةً، وخضوعاً، وتذللاً، وعبادةً؛ فهو: الإله الحق ولو لم يَخلق خلقه، وهو: الإله الحق ولو لم يَعبدوه؛ فهو المعبود حقاً، الإله حقاً، المحمود حقاً، ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه، ولم يحمدوه، ولم يألهوه: فهو الله الذي لا إله إلا هو قبل أن يخلقهم، وبعد أن خلقهم، وبعد أن يفنيهم؛ لم يستحدث بخلقه لهم، ولا بأمره إياهم استحقاق إلهية، وحمد بل إلهيتُه، وحمده، ومجده، وغناه أوصافٌ ذاتية له يستحيل مفارقتها له لحياته، ووجوده، وقدرته، وعلمه، وسائر صفات كماله.

فأولياؤه، وخاصته، وحزبه لما شهدت عقولهُم، وفطرهم أنه أهلٌ أن يُعبد- وإن لم يرسل إليهم رسولاً، ولم ينزل عليهم كتاباً، ولو لم يخلق جنةً أو ناراً-: علموا أنه لا شيء في العقول، والفطر أحسن من عبادته، ولا أقبح من الإعراض عنه)(٢).

الوجه الثاني: أن الإسلام؛ هو: العهد، والميثاق الذي أخذه اللهُ على الإنسان:

* قال الله تعالى في آيات الإشهاد المشهورة:{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}؛[١٧٢- ١٧٤].

(١)" مسلم٤/٢١٩٧":(كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهلُ الجنة وأهل النار، ح: ٢٨٦٥).
(٢)" مفتاح دار السعادة٤/٢٤٧".

ـــــ وهذه الآيات؛ هي: آيات العهد، والميثاق المعروفة؛ وللعلماء هاهنا قولان[١]:

القول الأول: أن حقيقة الإشهاد هنا؛ هو: فَطْر ذرية بني آدم على التوحيد مع الشهادة به- حالاً لا مقالاً- بما رَكّب اللهُ فيهم من العقول، وبما نصب لهم من عظيم خلقه، وغرائب صنعه، ودلائل وحدانيته التي تضطرهم اضطراراً إلى العلم بأن للكون خالقاً لا يعبد إلا إياه؛ فليس للإشهاد حقيقة مستقلة خارج ما ذُكِرَ.

قال الإمام ابن كثير- رحمه الله-:(قال قائلون من السلف، والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد؛ إنما هو فَطْرُهم على التوحيد كما تقدّم في حديث أبي هريرة، وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية البصري عن الأسود بن سريع؛ وقد فَسّر الحسن الآية بذلك؛ قالوا: ولهذا قال:{ وإذ أخذ ربك من بني آدم}، ولم يقل:" من آدم"،{ من ظهورهم}؛ ولم يقل:" من ظهره"،{ ذرياتهم}؛ أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن كقوله تعالى: {وهو الذي جعلكم خلائف الأرض}، وقال:{ ويجعلكم خلفاء الأرض}، وقال:{ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين}؛ ثم قال:{ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى}؛ أي: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً؛ وقال: الشهادة تارة تكون بالقول كقوله:{ قالوا شهدنا على أنفسنا}؛ الآية، وتارة تكون حالاً كقوله تعالى:{ ما كان للمشركين أن يعمروا مسجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر}؛ أي: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى:{ وإنه على ذلك لشهيد}؛ كما أن السؤال تارة يكون بالمقال، وتارة يكون بالحال كقوله:{ وآتاكم من كل ما سألتموه}؛ قالوا: وممّا يدل على أن المراد بهذا هذا أنْ جُعِلَ هذا الإشهاد حجةً عليهم في الإشراك؛ فلو كان قد وقع هذا كما قال مَنْ قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجةً عليه؛ فإن قيل: إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم به كافٍ في وجوده؛ فالجواب: أن المكذبين من المشركين يُكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا، وغيره؛ وهذا جُعلَ حجةً مستقلة عليهم: فدل على أنه الفطرة التي فُطروا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال:{ أن تقولوا}؛ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة:{ إنا كنا عن هذا}؛ أي: التوحيد:{ غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا}؛ الآية)[٢].

القول الثاني؛ وهو مذهب جمهور المفسرين، وعامة أهل الأثر: أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه، وأصلاب بنيه؛ وهم صور كالذر، وركّب فيهم عقولاً تعقل بها ما يعرض عليها، وأخذ عليهم الميثاق بأنه ربهم المعبود، وحقه

---

(١) انظر:" التسهيل لعلوم التنزيل٢/٥٣: ٥٤"،" التفسير الكبير١٥/٣٩: ٤٢"،" أضواء البيان٢/٤٢: ٤٣".

(٢)" تفسير ابن كثير٢/٢٦٥".

عليهم لازم، وأنهم عبيده المربوبون: فأقروا بذلك، ووقعت الشهادة عليهم به؛ ثم أخرجهم إلى الدنيا بفطرة مجبولة على مقتضى الميثاق ولازمه، وبعقل يقيم برهانه، ويجاهد دونه[1].

قال الإمام الطبري- رحمه الله-:(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد: واذكر يا محمد ربك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم؛ فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به...)[2].

ثم ساق الإمام الطبري عدداً كبيراً من الآثار ما بين مرفوع، وموقوف، ومقطوع تنطق بما قرّره بجلاء.

قال ابن جزي- رحمه الله-:(رُوِي هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم من طرق كثيرة، وقال به جماعة من الصحابة، وغيرهم)[3].

وقال الحافظ ابن عبد البر- رحمه الله-:(معنى هذا الحديث قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة، ثابتة يطول ذكرها من حديث عمر بن الخطاب، وغيره جماعة يطول ذكرهم...)[4].

ـــــ وهذا القول الثاني هنا؛ هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه لمجيء الآثار الصحيحة عن الصحابة مرفوعة، وموقوفة عليه؛ وإذا جاء نهر الله: بطل نهر معقل[5].

* وقد جاء في الحديث المتفق عليه عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال:" يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء؛ أكنت تفتدي به؟!؛ فيقول: نعم؛ فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي شيئاً؛ فأبيت إلا أن تشرك بي"[6].

قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-:(ومناسبته للترجمة من قوله:" وأنت في صلب آدم"؛ فإن فيه إشارة إلى قوله تعالى:{ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم}؛ الآية)[7].

* و(أخرج عبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ،

---

(١) انظر:" آثار حجج التوحيد في مؤاخذة العبيد/١٩" لمدحت فراج: دار الكتاب والسنة،كراتشي، باكستان، ط١، ١٤١٦هـ.

(٢)" تفسير الطبري٩/١١٠".

(٣)" التسهيل٢/٥٣".

(٤)" التمهيد٦/٦"؛ ونقله عنه القرطبي مقراً له كما في:" تفسير القرطبي٧/٣١٥"، وكذا الشنقيطي في:" الأضواء٢/٤٤".

(٥) انظر في ترجيح هذا القول مفصّلاً:" آثار حجج التوحيد في مؤاخذة العبيد/٢٥: ٣٠"؛ مرجع سابق.

(٦)" البخاري٥/٢٣٩٩":(كتاب: الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته، ح: ٣١٥٦-كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، ح: ٦١٨٩)، "مسلم٤/٢١٦٠": (كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً، ح: ٢٨٠٥).

(٧)" فتح الباري٦/٣٦٩".

وابن منده في كتاب الرد على الجهمية، واللالكائي، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن عساكر في تاريخه عن أبي بن كعب في قوله:{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ- إلى قوله- بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}؛ قال:" جَمَعَهم جميعاً؛ فجعلهم أرواحا في صورهم؛ ثم استنطقهم: فتكلموا؛ ثم أخذ عليهم العهدَ، والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟!؛ قالوا: بلى، قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع، وأشهد عليك أباكم آدم؛ أن تقولوا يوم القيامة: إنّا لم نعلم بهذا؛ اعلموا: أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، ولا تشركوا بي شيئاً، إني سأرسل إليكم رسلي: يذكرونكم عهدي، وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي؛ قالوا: شهدنا بأنك ربنا، وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك: فأقروا، ورفع عليهم آدم ينظر إليهم؛ فرأى الغني والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك؛ فقال: يا رب!؛ لولا سويت بين عبادك!؛ قال: إني أحببتُ أن أُشكر، ورأى الأنبياء فيهم مثل السّرج عليهم النور؛ وخُصّوا بميثاق آخر في الرسالة، والنبوة أن يبلغوا؛ وهو قوله:{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ}، وهو قوله:{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}؛ وفي ذلك قال:{ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ}، وفي ذلك قال:{ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ}..."[1])[2].

ـــــــ وعلى كلا القولين؛ فدلالة الآيات: قائمة معنا هنا؛ أي في بيان كون الخطاب الدعوي الذي جاء به الأنبياء، والمرسلون: خطاباً فطرياً؛ أي: موافقاً للفطرة التي فطر اللهُ الناس عليها من معرفته، وعبادته.

أمّا على القول الأول؛ فالأمر ظاهر؛ وتصبح دلالة آيات الأشهاد هنا عين دلالة آية الفطرة؛ أي: آية الروم المتقدّمة في الوجه الأول.

وأمّا على القول الثاني؛ فالدلالة- كذلك- قائمة إذ ذلك الإشهاد الخاص هو من مواد الفطرة، وأسسها بلا شك؛ أي أن الفطرة من آثاره، ومقتضياته، ولوازمه المباشرة.

قال الحافظ الحكمي- رحمه الله- بعد ذكره للقولين السابقين في آيات الإشهاد:(ليس بين التفسيرين: منافاة، ولا مضادة، ولا معارضة؛ فإن هذه المواثيق كلها ثابتة بالكتاب، والسنة...)[3].

---

(١) أخرجه الحاكم؛ وقال:(صحيح الإسناد، ولم يخرجاه)؛ ووافقه الذهبي-" المستدرك٣٢٤/٢"-، وصحّح إسنادَه الشيخُ أحمد شاكر-" تحقيق تفسير الطبري٢٣٩/١٣"-، وقال الألباني سنده حسن موقوف؛ ولكنه في حكم المرفوع لأنه لا يقال من قبل الرأي)-" تحقيق المشكاة٤٤/١"، وقال السيد صديق حسن خان معلّقاً عليه:(وهو في حكم المرفوع وإنْ لم يرفعه لأن مثل هذا لا يُقال من قبل الرأي والاجتهاد)-" الدين الخالص٤٠٨/١"-.

(٢)" معارج القبول٩٢/١".

(٣)" الدر المنثور٦٠٠/٣".

وقد قال ابن كثير- رحمه الله-:(يُخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم، ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فَطَرَهم على ذلك، وجَبَلهم عليه)[1].

وقال- رحمه الله-:(قد فطر- أي: الله جل ثناؤه- الخلق كلهم على معرفته، وتوحيده، والعلم بأنه لا إله غيره كما أخذ عليهم بذلك الميثاق، وجعله في غرائزهم، وفطرهم)[2].

وقال ابن تيمية- رحمه الله-:(فالنفس بفطرتها إذا تُركتْ: كانت مقرةً له بالإلهية، محبةً له، تعبده لا تشرك به شيئاً؛ ولكن يفسدها ما يُزين لها شياطين الإنس، والجن بما يُوحي بعضهم إلى بعض من الباطل؛ قال تعالى:{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى})[3].

ـــــ وبما سبق: يتبين- بجلاء- أن الإسلام: هو دين الله وحده الذي خُلق الخلقُ جميعاً ليتدّينوا به، ويستسلموا له.

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(ولهذا كانت الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها، وتقويته وإمداده، ونفي المغيّر للفطرة؛ فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها؛ لا بتغيير الفطرة وتحويلها؛ والكمال يحصل بالفطرة المكمّلة بالشرعة المنزلة)[4].

* وقد قال تعالى في سورة هود:{ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ}؛[هود: ١٧].

قال الإمام ابن كثير- رحمه الله-:(يُخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى:{ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها}؛ الآية، وفي الصحيحين عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"كل مولود يُولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمه جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء"؛ الحديث،

---

(١)" الدر المنثور٣/٦٠٠".

(٢)" تفسير ابن كثير٢/٢٦٢".

(٣)" الفتاوى١٤/٢٩٦".

(٤)" الفتاوى١٦/٣٤٦".

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال:" يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء؛ فجاءتهم الشياطين: فاجتالتهم عن دينهم، وحَرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً"؛ وفي المسند، والسنن:"كل مولود يولد على هذه الملة حتى يُعرب عنه لسانه"؛ الحديث؛ فالمؤمن باقٍ على هذه الفطرة؛ وقوله:{ ويتلوه شاهد منه}؛ أي: وجاءه شاهدٌ من الله؛ وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة، المكملة، المعظمة، المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين...؛ وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة؛ والتفاصيل تُؤخذ من الشريعة؛ والفطرة تُصدّقها، وتُؤمن بها؛ ولهذا قال تعالى:{ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه}؛ وهو القرآن بلّغه جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبلّغه النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمته ثم قال تعالى: {ومن قبله كتاب موسى}؛ أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى؛ وهو التوراة:{ إماماً ورحمة}؛ أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوةً يقتدون بها، ورحمة من الله بهم...)[1].

وقال السعدي- رحمه الله-:({ أفمن كان بينة من ربه}؛ بالوحي الذي أَنزل الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة: فتيقن تلك البينة؛{ ويتلوه}؛ أي: يتلو هذه البينة، والبرهان برهانٌ آخر:{ شاهد منه}؛ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح حين شهد حقيقة ما أوحاه الله، وشَرَعه، وعَلِمَ بعقله حُسْنَه: فازداد بذلك إيماناً إلى إيمانه؛ وثم شاهد ثالث:{ من قبله}؛ وهو:{ كتاب موسى}؛ التوراة التي جعلها الله:{ إماماً} للناس، {ورحمة}؛ لهم يشهد لهذا القرآن بالصدق، ويوافقه فيما جاء به من الحق؛ أي: أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين كمن هو في الظلمات، والجهالات ليس بخارج منها: لا يستوون عند الله، ولا عند عباد الله؛{ أولئك}؛ أي: الذين وُفّقوا لقيام الأدلة عندهم:{ يؤمنون به}؛ أي: بالقرآن حقيقة: فيُثمر لهم إيمانُهم كلَّ خير في الدنيا، والآخرة...)[2].

---

(١)" تفسير ابن كثير٢/٤٤١".

(٢)" تفسير السعدي/٣٧٩".

الوجه الثالث: أن الإسلام؛ هو: دين الأنبياء، والمرسلين جميعاً:

ــــــ وقد نصّ الله سبحانه وتعالى على أن أنبياءه، ورسله جميعاً كانوا على دين الإسلام؛ ومن ذلك:

* قوله تعالى عن نوح عليه السلام:{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}؛ [يونس: ٧١- ٧٢].

(فهذا نوح الذي غرق أهل الأرض بدعوته، وجعل جميع الآدميين من ذريته يَذْكر أنه أُمِرَ أن يكون من المسلمين)[١].

* وقوله تعالى عن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب عليهم السلام:{ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}؛[البقرة: ١٣٠- ١٣٦].

(فقد أخبر تعالى أنه أمر الخليل بالإسلام، وأنه قال: أسلمتُ لرب العالمين، وأن إبراهيم وصّى بنيه، ويعقوب وصّى بنيه أن لا يموتن إلا وهم مسلمون)[٢].

* وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام:{ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}؛[يوسف: ١٠١].

---

(١)" دقائق التفسير لابن تيمية١/٣٣٧".

(٢)" نفس المرجع١/٣٣٨".

* وقال تعالى في قصص سليمان عليه السلام:{ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ...؛ قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ...؛ فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ...؛ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}؛[النمل: ٢٨- ٤٤].

* وقال تعالى في قصص موسى عليه السلام:{ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ...؛ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ **وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**}؛[يونس: ٨٤- ٩٠].

قلتُ: فحتى فرعون الذي زعم أنه ربهم الأعلى: يَعرف أن الدين الذي جاء به موسى عله السلام؛ هو دين الإسلام لا غير!.

* وقال تعالى في قصص عيسى عليه السلام:{ إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}؛[آل عمران: ٥١- ٥٢].

* وقال- كذلك-:{ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}؛[المائدة: ١١١].

ـــــــ والآيات المتقدّمة كلها: مصرّحةٌ بأن الإسلام؛ هو دين الأنبياء، والمرسلين الذي جاءوا به؛ فلم يأتوا بدين غيره؛(فهؤلاء الأنبياء كلهم، وأتباعهم؛ كُلّهم يذكر الله تعالى أنهم كانوا مسلمين؛ وهذا ممّا يبين أن قوله تعالى:{ ومَنْ يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}، وقوله:{ إن الدين عند الله الإسلام}: لا يختصّ بمَنْ بُعث إليه محمدٌ صلى الله عليه وسلم بل هو حكمٌ عام في الأولين، والآخرين؛ ولهذا قال تعالى:{ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً}، وقال تعالى:{ وقالوا

لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون})[1].

* وقد قال تعالى:{ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ مُوسَىَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ}؛[الشورى: ١٣- ١٤].

قال الرازي- رحمه الله-:(والمعنى: شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصّى به نوحاً، ومحمداً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى؛ هذا هو المقصود من لفظ الآية؛ وإنما خصّ هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء، وأصحاب الشرائع العظيمة، والأتباع الكثيرة)[2].

* وقال تعالى في سورة الأنبياء بعد ذِكر طائفة من قَصص الأنبياء، والمرسلين:{ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ }؛[الأنبياء: ٩٢- ٩٣].

* وقال تعالى- كذلك- في سورة المؤمنون:{ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}؛[المؤمنون: ٥١- ٥٣].

قال الشنقيطي- رحمه الله-:(والمراد بالأمة هنا: الشريعة، والملة؛ والمعنى: وأن هذه شريعتكم شريعة واحدة؛ وهي: توحيد الله على الوجه الأكمل من جميع الجهات، وامتثال أمره، واجتناب نهيه بإخلاص في ذلك على حسب ما شرعه لخلقه؛{ وأنا ربكم فاعبدون}؛ أي: وحدي؛ والمعنى: دينكم واحد، وربكم واحد؛ فلِمَ تختلفون؟!...)[3].

---

(١)" دقائق التفسير لابن تيمية١/٣٣٩"؛ ونحوه في:" مجموع الفتاوى١٩/١٠٩: ١١٢"،" الجواب الصحيح٦/٣٦: ٣٧"،" إغاثة اللهفان٢/١٩٦".

(٢)" التفسير الكبير٢٧/١٣٤".

(٣)" أضواء البيان٤/٢٤٦".

* وقد جاء من حديث أبي هُرَيْرَةَ– رضي الله عنه–؛ قال: قال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:" أنا أَوْلَى الناس بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ"[(١)].

(ومعنى الحديث: أن أصل دينهم واحد؛ وهو التوحيد وإنْ اختلفت فروع الشرائع)[(٢)].

* وكذلك؛ جاء من حديث أبي هريرة– رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال:" إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً؛ فأحسنه، وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية؛ فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له؛ ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؛ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين"[(٣)].

ـــــ فالنصوص من الكتاب، والسنة: يُصدّق بعضُها بعضاً في أن جميع الأنبياء، والرسل أمة واحدة، وعلى دين واحد؛ وهو دين الإسلام.

فهو دين واحد، ثابت؛ يتجدّد على ألسن الأنبياء، والرسل جميعاً؛ موضوعه: إفراد الله وحده بالعبادة مع التزام شرعه من الأمر، والنهي.

قال ابن تيمية– رحمه الله–:(فدينهم واحد؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له؛ وهو يُعبد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت؛ وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت)[(٤)].

وقال ابن تيمية– رحمه الله– أيضاً–:(فالدين واحد؛ وإنما تنوعت شرائعهم، ومناهجهم كما قال تعالى:{ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً}؛ فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية، والعملية؛ فالاعتقادية: كالإيمان بالله، وبرسوله، وباليوم الآخر، والعملية: كالأعمال العامة المذكورة فى الأنعام، والأعراف، وسورة بنى إسرائيل...)[(٥)].

قلت: وقد قال الله تعالى مخاطباً رسولَه الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم:{ قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ

(١)" البخاري٣/١٢٧٠".

(٢)" فتح الباري٦/٤٨٩"؛ ونحوه في:" عمدة القاري١٦/٣٦".

(٣)" البخاري٣/١٣٠٠":(كتاب: المناقب، باب: خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم؛ ح: ٣٣٤٢)،" مسلم٤/١٧٩١":(كتاب: الفضائل، باب: ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين؛ ح: ٢٢٨٦).

(٤)" اقتضاء الصراط المستقيم/٤٥٥".

(٥)" الفتاوى لابن تيمية١٥/١٥٩".

وَنَحْــنُ لَــهُ مُسْــلِمُونَ وَمَــن يَبْتَــغِ غَيْــرَ الإِسْــلاَمِ دِينًــا فَلَــن يُقْبَــلَ مِنْــهُ وَهُــوَ فِي الآخِــرَةِ مِــنَ الْخَاسِــرِينَ}؛ [آل عمران: ٨٤- ٨٥].

وقد قال الطحاوي- رحمه الله- في عقيدته المشهورة:" وَدِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَالسَّمَاءِ: وَاحِدٌ؛ وَهُوَ: دِينُ الْإِسْلَامِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}، وَقَالَ تَعَالَى:{ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}"(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:(والإسلام: هو دين جميع الأنبياء، والمرسلين، ومَنْ اتّبعهم من الأمم كما أخبر الله بنحو ذلك في غير موضع من كتابه؛ فأخبر عن نوح، وإبراهيم، وإسرائيل أنهم كانوا مسلمين، وكذلك عن أتباع موسى، وعيسى، وغيرهم؛ والإسلام: هو أن يستسلم لله لا لغيره؛ فيعبد الله، ولا يشرك به شيئاً...؛ فمَنْ استكبر عن عبادة الله: لم يكن مسلماً، ومَنْ عبد مع الله غيره: لم يكن مسلماً؛ وإنما تكون عبادته بطاعته، وطاعة رسله؛ ومَنْ يطع الرسول: فقد أطاع الله؛ فكل رسول بُعث بشريعة؛ فالعمل بها في وقتها: هو دين الإسلام؛ وأمّا ما بُدّل منها: فليس من دين الإسلام)(٢).

وقال- رحمه الله- أيضاً-:(والله سبحانه بعث محمداً بالهدى، ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً؛ فبَعثه بدين الإسلام الذى بَعث به جميع الأنبياء فإن الدين عند الله الإسلام، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً: فلن يقبل منه: لا من الأولين، ولا من الآخرين؛ وجميع الأنبياء كانوا على دين الإسلام كما فى الصحيحين عن النبي عليه السلام أنه قال:" إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد؛ الأنبياء إخوة لعلات"؛ وقد أخبر تعالى فى القرآن عن نوح، وإبراهيم، وإسرائيل، وأتباع موسى، والمسيح، وغيرهم أنهم كانوا مسلمين، متفقين على عبادة الله وحده؛ لا شريك له؛ وأن يعبد بما أمر هو سبحانه وتعالى: فلا يعبد غيره، ولا يعبد هو بدين لم يشرعه)(٣).

(١)" شرح الطحاوية٢/٧٨٦"- ت: الأرناؤوط-.

(٢)" المحرر الوجيز٤/٤٦٠"؛ ونحوه تماماً في:" تفسير الثعالبي٤/١١".

(٣)" الفتاوى٢٧/٢٦٩: ٢٧٠".

الأصل الخامس

كُفْرُ كُلِّ مَنْ لم يتديّن بدين الإسلام

ـــــ فإذا كان الإسلام وحده؛ هو: دينُ الله، وليس لله دينٌ سواه، وإذا كان الإسلام وحده؛ هو: دينُ جميع الأنبياء، والمرسلين: فإنّ من البديهيّات- إذاً- كُفرَ كل مَنْ لم يتديّن بدين الإسلام.

ونتكلم في هذه المسألة الهامة من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: الأدلة من القرآن الكريم على كُفْر كُلِّ مَنْ لم يتديّن بدين الإسلام.

* قال تعالى:{ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّه سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}؛ [آل عمران: ١٩- ٢٠].

قال ابن كثير- رحمه الله-:(وقوله تعالى:{ إن الدين عند الله الإسلام}: **إخباراً منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام**؛ وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي سدَّ جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم؛ **فمَنْ لقي الله بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعته: فليس بمتقبّل** كما قال تعالى:{ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه}؛ الآية؛ وقال في هذه الآية مخبراً انحصارَ الدّين المتقبّل منه عنده في الإسلام:{ إن الدين عند الله الإسلام})[1].

وقوله هنا:({ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب}: نزلت في اليهود، والنصارى حين تركوا الإسلام الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وأنكروا نبوته؛ والتعبير عنهم بالموصول، وجعل إيتاء الكتاب صلة له لزيادة تقبيح حالهم فإن الاختلاف ممّن أوتي ما يزيله، ويقطع شأفته في غاية القبح، والسماجة؛ وقوله تعالى:{ إلا من بعد ما جاءهم

(١)" تفسير ابن كثير ١/٣٥٥".

العلم}: استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأوقات؛ أي: وما اختلفوا في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات إلا بعد أن علموا بأنه الحق الذي لا محيد عنه أو بعد أن علموا حقيقة الأمر، وتمكنوا من العلم بها بالحجج النيرة، والآيات الباهرة؛ وفيه من الدلالة على ترامي حالهم فى الضلالة: ما لا مزيد عليه؛ فإن الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة: ممّا لا يصدر عن العاقل)[1].

وقوله في الآية:({ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب}؛ **هذا عامٌ في كل كافر بآيات الله: فلا يُخص بالمختلفين من أهل الكتاب**)[2].

قال ابن القيم- رحمه الله-:(وقد دل قوله:{ إن الدين عند الله الإسلام}: على أنه دين جميع أنبيائه، ورسله، وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قطٌّ، ولا يكون له دينٌ سواه...؛ فالإسلام: دين أهل السموات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض؛ لا يَقبل اللهُ من أحدٍ ديناً سواه؛ فأديان أهل الأرض: ستةٌ؛ واحدٌ للرحمن، وخمسة للشيطان؛ **فدين الرحمن: هو الإسلام؛ والتي للشيطان: اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والصابئة، ودين المشركين**)[3].

* وقال تعالى:{ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}؛[آل عمران: ٨٥].

(بَيَّن في هذه الآية: أن الدين ليس إلا الإسلام، وأن كل دين سوى الإسلام فإنه غير مقبول عند الله لأن القبول للعمل هو أن يرضى الله ذلك العمل، ويرضى عن فاعله، ويثيبه عليه؛ ولذلك قال تعالى:{ إنما يتقبل الله من المتقين}؛ ثم بَيَّن تعالى أن كل من له دين سوى الإسلام: فكما أنه لا يكون مقبولاً عند الله: فكذلك يكون من الخاسرين)[4].

قال أبو السعود- رحمه الله-:(والمعنى: أن المعرض عن الإسلام، والطالب لغيره: فاقدٌ للنفع، واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها)[5].

---

(١)" تفسير أبي السعود٢/١٨"؛ وانظر:" تفسير البحر المحيط٢/٤٢٦: ٤٢٧".

(٢)" تفسير البحر المحيط٢/٤٢٧".

(٣)" مدارج السالكين٣/٤٧٦".

(٤)" التفسير الكبير٨/١١٠".

(٥)" تفسير أبي السعود٢/٥٥"، ونحوه تماماً في:" تفسير البيضاوي٢/٦١".

(ومراده: أن الله يُبيّن أنه لا يقبل إلا الإسلام من الأولين، والآخرين)[١].

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(فإن قوله تعالى:{ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً}: صيغة عامة، وصيغة" من" الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله تعالى:{ فمَنْ يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومَنْ يعمل مثقال ذرة شراً يره}؛ ثم إن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب، وغيرهم فإن هذا في سورة آل عمران في أثناء مخاطبته لأهل الكتاب، ومناظرته للنصارى فإنها نزلت لَمّا قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران النصارى...؛ وقد قال قبل هذا الكلام يَذُمّ دين النصارى الذي ابتدعوه، وغَيّروا به دين المسيح، ولبسوا الحق الذي بُعث به المسيح بالباطل الذي ابتدعوه...

وهذا ممّا يُبَيّن أن قوله تعالى:{ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}، وقوله:{إن الدين عند الله الإسلام}: لا يختصّ بمَنْ بُعث إليه محمدٌ صلى الله عليه وسلم بل هو حكم عام في الأولين، والآخرين؛ ولهذا قال تعالى:{ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً}، وقال تعالى:{ وقالوا لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى مَنْ أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون})[٢].

* وقد قال الضحاك- رحمه الله- في هذه الآية:" يعني: لا يقبل اللهُ من جميع الخلق من أهل الأديان ديناً غير الإسلام؛ ومَنْ تَديّن بدين غير دين الإسلام: فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين؛ أي: من المغبونين لأنه ترك منزله في الجنة، واختار منزله في النار"[٣].

* وقد قال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا}؛ [النساء: ١٥٠- ١٥١].

---

(١)" دقائق التفسير١/٢١٤".

(٢)" دقائق التفسير١/٣٣٣: ٣٣٩"، ونحوه في:" الفتاوى لابن تيمية٢٧/٣٧٠: ٣٧١".

(٣)" تفسير السمرقندي١/٢٥٣".

قال ابن كثير- رحمه الله-:(**يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به، وبرسله من اليهود، والنصارى حيث فرّقوا بين الله، ورسله في الإيمان: فآمنوا ببعض الأنبياء، وكفروا ببعض بمجرد التشهي، والعادة**، وما ألفوا عليه آباءهم لا عن دليل قادهم إلى ذلك فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى، والعصبية...؛ **والمقصود أن من كفر بِنَبِيٍّ من الأنبياء: فقد كفر بسائر الأنبياء** فإن الإيمان واجب بكل نبيٍّ بعثه الله إلى أهل الأرض؛ فمَنْ ردَّ نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي: تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً إنما هو عن غرض، وهوى، وعصبية؛ ولهذا قال تعالى:{ إن الذين يكفرون بالله ورسله}؛ فوسمهم بأنهم كفار بالله، ورسله...)[1].

وتأمّل قوله تعالى هنا:{ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا}؛ أي:(أولئك الموصوفون بالصفات القبيحة: هم الكافرون الكاملون في الكفر لا عبرة بما يدّعونه، ويسمونه إيماناً أصلاً؛ و{ حقاً}: مصدر مؤكد لمضمون الجملة؛ أي: حقٌّ ذلك؛ أي: كونهم كاملين في الكفر حقاً أو صفة لمصدر الكافرين؛ أي: هم الذين كفروا حقاً؛ أي: ثابتاً، يقيناً لا ريب فيه)[2]؛(**فحكم عليهم: بالكفر المحقق إذا آمنوا ببعض الرسل، وكفروا ببعضهم**)[3].

قال السمعاني- رحمه الله-:({ أولئك هم الكافرون حقاً}؛ **إنما حقّق كفرَهم ليعلم أنهم كفارٌ مطلقاً لئلا يَظن ظانٌّ أنهم لما آمنوا بالله، وبعض الرسل لا يكون كفرهم مطلقاً**)[4].

ـــــ وعليه؛ فالآيتان مصرّحتان تصريحاً غير قابل للتأويل بكفر مَنْ لا يؤمن بأي رسول من رسل الله من لدن آدم إلى محمدٍ صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين ضرورة أنهم جميعاً أتوا بدين واحد من عند الله سبحانه وتعالى؛ وهو دين الإسلام؛ فمّنْ كَفر برسول واحد أيّاً كان: فقد كفر بدين الله:" الإسلام".

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(والأنبياء كلهم دينهم واحد، وتصديق بعضهم مستلزم تصديق سائرهم، وطاعة بعضهم تستلزم طاعة سائرهم؛ وكذلك التكذيب، والمعصية: لا يجوز أن يكذب نبي نبياً بل إن عرفه: صدقه؛ وإلا: فهو يصدق بكل ما أنزل الله مطلقاً، وهو يأمر بطاعة مَنْ أمر الله بطاعته؛ ولهذا كان مَنْ صدّق محمداً: فقد صدق كل نبي، ومَنْ أطاعه: فقد أطاع كل نبي، ومَنْ كذّبه: فقد كذّب كل نبي، ومَنْ عصاه: فقد عصى كل نبي؛ قال

---

(١)" تفسير ابن كثير١/٥٧٣"، ونحوه في:" تفسير الطبري٦/٥"،" تفسير البغوي١/٤٩٤"،" تفسير السمرقندي١/٣٧٧"،" تفسير السعدي/٥٩: ٦٠".

(٢)" تفسير أبي السعود٢/٢٤٨: ٢٤٩"، ونحوه في:" تفسير البيضاوي٢/٢٧٤".

(٣)" تفسير ابن كثير١/١٣٣".

(٤)" تفسير السمعاني١/٤٩٧".

تعالى:{ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً}، وقال تعالى:{ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون})[1].

وقال- رحمه الله- كذلك-:(وكل مَنْ كذّب الرسل: لا يكون إلا مشركاً؛ وكذلك مَنْ كذّب ببعضهم دون بعض كما قال تعالى:{ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً}؛ فكُلّ مَنْ كذّب محمداً أو المسيح أو داود أو سليمان أو غيرهم من الأنبياء الذين بعثوا بعد موسى: فهو كافر)[2].

ـــــ وبالإضافة للآيات المتقدّمة الدالة على كُفْر كل مَنْ لم يتديّن بدين الإسلام عموماً: فهاهنا آياتٌ أخرى في كُفْرِ أهل الكتاب خصوصاً؛ منها:

* قوله تعالى:{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}؛[آل عمران: ٦٤: ٧١].

ـــــ والآيات مفصّلة لحال أهل الكتاب، وبيان مخالفتهم لملة أبيهم إبراهيم عليه السلام، وخروجهم عن دين الإسلام، ووقوعهم في الكفر، والشرك حتى قبل مبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم فضلاً عن كفرهم، وشركهم بعد مبعثه صلوات ربي وسلامه عليه.

---

(١)" الفتاوى١٩/١٨٥".

(٢)" الفتاوى٢٧/٢٨١".

قال السعدي- رحمه الله-:(إن الله تعالى بَرّأ خليله من اليهود، والنصارى، والمشركين؛ وجعله حنيفاً، مسلماً، وجعل أولى الناس به مَنْ آمن به من أمته، وهذا النبي؛ وهو: محمدٌ صلى الله عليه وسلم، ومَنْ آمن معه؛ فهم الذين اتبعوه، وهم أولى به من غيرهم؛ والله تعالى وليّهم، وناصرهم، ومؤيدهم؛ وأمّا مَنْ نبذ ملته وراء ظهره كاليهود، والنصارى، والمشركين: فليسوا من إبراهيم، وليس منهم، ولا ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب)[1].

وقد(أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن جريج:{ لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون}؛ على أن الدين عند الله الإسلام؛ ليس لله دينٌ غيره.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الربيع في قوله:{ لم تلبسون الحق بالباطل}؛ يقول: لم تخلطون اليهودية، والنصرانية بالإسلام وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره: الإسلامُ؛{ وتكتمون الحق}؛ يقول: تكتمون شأن محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، والإنجيل)[2].

قال الطبري- رحمه الله-:(وإنما هذا من الله عز وجل توبيخٌ لأهل الكتابَيْن على كفرهم بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، وجحودهم نبوته؛ وهم يجدونه في كتبهم مع شهادتهم أن ما في كتبهم حق، وأنه من عند الله)[3].

ولهذا؛ قال ابن القيم- رحمه الله-:(يعني: تكفرون بالقرآن، وبِمَنْ جاء به وأنتم تشهدون بصحته، وبأنه الحق؛ فكفرُكم: كفرُ عنادٍ، وجحود عن علمٍ، وشهود لا عن جهل، وخفاء)[4].

* وقال تعالى- كذلك-:{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}؛ [آل عمران: ٩٨- ٩٩].

وفي هاتين الآيتين(يُوبّخ تعالى أهلَ الكتاب من اليهود، والنصارى على كفرهم بآيات الله التي أنزلها الله على رسله التي جعلها رحمةً لعباده يهتدون بها إليه، ويستدلون بها على جميع المطالب المهمة، والعلوم النافعة؛ فهؤلاء الكفرة: جمعوا بين الكفر بها، وصَدّ مَنْ آمن بالله عنها، وتحريفها، وتعويجها عمّا جُعِلَت له؛ وهم شاهدون بذلك،

---

(١)" تفسير السعدي/١٣٤".

(٢)" الدر المنثور٢/٢٤٠"؛ وانظر:" تفسير الطبري٣/٣٠٩: ٣١٠".

(٣)" تفسير الطبري٣/٣٠٩".

(٤)" مفتاح دار السعادة١/٩١".

عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة)[1].

قال أبو السعود- رحمه الله-:(وإنما خُوطِبوا بعنوان أهلية الكتاب الموجبة للإيمان به، وبما يصدّقه من القرآن العظيم: مبالغةٌ في تقبيح حالهم في كفرهم بها؛ وقوله عز وجل :{ لم تكفرون بآيات الله}: توبيخٌ، وإنكار لأن يكون لكفرهم بها سببٌ من الأسباب، وتحقيقٌ لما يوجب الاجتناب عنه بالكلية؛ والمراد بآياته تعالى: ما يعُمّ الآيات القرآنية التي من جملتها ما تلى في شأن الحج، وغيره، وما في التوراة، والإنجيل من شواهد نبوته عليه السلام)[2].

وجملة:{ والله شهيد على ما تعملون}: جملةٌ حالية؛(والمعنى: لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق محمد عليه الصلاة والسلام؛ والحال أن الله شهيدٌ على أعمالكم، ومجازيكم عليها؛ وهذه الحال: توجب أن لا تجترؤا على الكفر بآياته)[3].

قال البيضاوي- رحمه الله-:(وتخصيص أهل الكتاب بالخطاب: دليلٌ على أن كفرهم أقبحُ لأن معرفتهم بالآيات أقوى، وأنهم وإنْ زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة، والإنجيل: فهم كافرون بهما)[4].

وأمّا قوله تعالى:{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}؛ فـ(لَمّا أنكر عليهم كفرهم في أنفسهم، وضلالهم؛ ولم يكتفوا حتى سعوا في إضلال مَنْ آمن: أنكر عليهم تعالى ذلك؛ فجمعوا بين الضلال، والإضلال)[5].

* وقد قال تعالى- أيضاً-:{ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}؛[التوبة: ٢٩].

والآية: حاكمةٌ بكفر أهل الكتاب كفراً مغلّظاً لمناطات أساس: عدم الإيمان الحق بالله، وعدم الإيمان باليوم الآخر ثم عدم التزام أحكام الشرع مع عدم التّدين بدين الإسلام؛ وكل صفة منها كافية في كفرهم مع ما بينها جميعاً من

---

(١)" تفسير السعدي/١٤١".

(٢)" تفسير أبي السعود٢/٦٣".

(٣)" التفسير الكبير٨/١٣٧"؛ ونحوه في:" تفسير البحر المحيط٣/١٦".

(٤)" تفسير البيضاوي٢/٧١"؛ ونحوه في:" تفسير البحر المحيط٣/١٥".

(٥)" تفسير البحر المحيط٣/١٦".

نسبة[١].

(ولَمّا ذكر تعالى هذه الصفات الأربعة؛ قال:{ من الذين أوتوا الكتاب}؛ فَبَيّن بهذا أن المراد من الموصوفين بهذه الصفات الأربعة: مَنْ كان من أهل الكتاب)[٢].

وقد(أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير- رضي الله عنه- في قوله:{ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله}؛ يعني: الذين لا يصدقون بتوحيد الله،{ ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله}؛ يعني: الخمر، والخنزير؛{ ولا يدينون دين الحق}؛ يعني: دين الإسلام؛{ من الذين أوتوا الكتاب}؛ يعني: من اليهود، والنصارى أوتوا الكتاب من قبل المسلمين أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛{ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}؛ يعني: يذلون)[٣].

وقوله:{ ولا يدينون دين الحق}؛(أي: لا يدينون الدين الحق؛ أضاف الاسم إلى الصفة؛ وقال قتادة: الحق هو الله؛ أي: لا يدينون دين الله؛ ودينه: الإسلام)[٤]؛ وهو نصٌّ في أن ما هم عليه من دين؛ هو: دينٌ باطلٌ، زائفٌ، لا قيمة له عند الله سبحانه وتعالى.

قال السعدي- رحمه الله-:({ ولا يدينون دين الحق}؛ أي: لا يدينون بالدين الصحيح؛ وإن زعموا أنهم على دين: فإنه دين غير الحق لأنه: إمّا دين مبدّل وهو الذي لم يشرعه أصلاً، وإمّا دين منسوخ قد شرعه الله ثم غَيّره بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فيبقى التمسك به بعد النسخ: غير جائز؛ فأمره بقتال هؤلاء، وحثّ على ذلك)[٥].

قلت:(فأهل الكتاب بعد النسخ، والتبديل ليسوا ممّن آمن بالله، ولا باليوم الآخر، وعمل صالحاً كما قال تعالى:{ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون})[٦].

---

(١) انظر:" التفسير الكبير١٦/٢٣: ٢٥"،" الكشاف٢/٢٤٩"،" تفسير أبي السعود٤/٥٨".

(٢)" التفسير الكبير١٦/٢٥".

(٣)" الدر المنثور٤/١٦٨"؛ ونحوه في:" تفسير ابن أبي حاتم٦/١٧٧٨".

(٤)" تفسير البغوي٢/٢٨٢".

(٥)" تفسير السعدي/٣٣٤".

(٦)" دقائق التفسير لابن تيمية٢/٧١".

وقد قال الإمام ابن كثير- رحمه الله- في هذه الآية:(فهم في نفس الأمر لَمّا كفروا بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم: لم يبق لهم إيمانٌ صحيح بأحد الرسل، ولا بما جاءوا به؛ وإنما يتّبعون آراءهم، وأهواءهم، وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله، ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً: لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم لأن جميع الأنبياء بَشّروا به، وأمروا باتباعه؛ فلمّا جاء: كفروا به- وهو أشرف الرسل-: عُلِمَ أنهم ليسوا متمسّكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من الله بل لحظوظهم، وأهوائهم؛ فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم، وأفضلهم، وخاتمهم، وأكملهم؛ ولهذا قال:{ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب})[1].

ـــــ وهناك جملةٌ أخرى من الآيات المبَيّنة لكفر أهل الكتاب بمناطات زائدة* عمّا سبق؛ منها:

* قولُه تعالى:{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}؛[البقرة: ٨٧- ٩١].

ـــــ والآيات: قوارع، مرسلة في كُفر أهل الكتاب من اليهود كفرَ جحود، وعناد؛ وهو أغلظ الكفر، وأشنعه؛ فبعد أن مَنَّ الله عليهم بالعلم، والمعرفة: جحدوا نعمة الله عليهم بغياً، وحسداً.

قال أبو السعود- رحمه الله-:({ بل لعنهم الله بكفرهم}: رَدٌّ لما قالوه، وتكذيبٌ لهم في ذلك؛ والمعنى على الأول: بل أبعدهم الله سبحانه عن رحمته بأنْ خذلهم، وخلاهم وشأنهم بسبب كفرهم العارض، وإبطالهم

(١)" تفسير ابن كثير٢/٣٤٨".

* تنبيه هام: كَفَرَ أهلُ الكتاب بأسباب متعددة لكنها ترجع- إجمالاً- لسببين؛ الأول: تبديلهم، وتحريفهم لدين الإسلام الذي جاء به أنبياءُ الله من لدن موسى إلى عيسى عليهم السلام؛ الثاني: تكذيبهم، وجحودهم لرسالة النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم؛ وانظر لزاماً:" الطريق إلى روما: صراعنا مع أهل الكتاب".

لاستعدادهم بسوء اختيارهم بالمرة، وكونهم بحيث لا تنفعهم الألطاف أصلاً بعد أن خلقهم على الفطرة، والتمكن من قبول الحق؛ وعلى الثاني: بل أبعدهم من رحمته؛ فأنّى لهم ادعاء العلم الذي هو أجل آثارها؛ وعلى الثالث: بل أبعدهم من رحمته؛ فلذلك لا يقبلون الحق المؤدي إليها...)(١).

* وفي قوله تعالى:{ وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ}:

(أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو نعيم عن قتادة؛ قال:"كانت اليهود تستفتح بمحمد على كفار العرب؛ يقولون: اللهم ابعث النبيَّ الذي نجده في التوراة: يعذبهم، ويقتلهم؛ فلمّا بَعثَ اللهُ محمداً: كفروا به حين رأوه بُعِثَ من غيرهم حسداً للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله")(٢).

* وقوله تعالى هنا:{ فلعنة الله على الكافرين}:(اللام للعهد؛ أي: عليهم؛ ووضع المظهر موضع المضمر للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم كما أن الفاء للإيذان بترتبها عليه أو للجنس؛ وهم داخلون في الحكم دخولاً أولياء إذ الكلام فيهم؛ وأيّاً ما كان: فهو محقق لمضمون قوله تعالى:{ بل لعنهم الله بكفرهم})(٣).

* وقوله تعالى:{ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}؛(أي: رجعوا ملتبسين بغضب كائن على غضب، مستحقين له حسب ما اقترفوا من كفر على كفر؛ فإنهم كفروا بنبي الحق، وبغوا عليه؛ وقيل: كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد عيسى؛ وقيل: بعد قولهم: عزيزاً ابن الله، وقولهم: يد الله مغلولة، وغير ذلك من فنون كفرهم؛{ وللكافرين}؛ أي: لهم؛ والإظهار في موقع الإضمار للإشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم؛{ عذاب مهين}: يُراد به إهانتهم، وإذلالهم لما أن كفرهم بما أنزل الله تعالى كان مبنياً على الحسد، المبني على طمع المنزول عليهم، وادّعاء الفضل على الناس، والاستهانة بمَنْ أُنزل عليه عليه السلام)(٤).

* وقال تعالى في كفر أهل الكتاب من النصارى:{ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا

---

(١)" تفسير أبي السعود١/١٢٨: ١٢٩".

(٢)" الدر المنثور١/٢١٦".

(٣)" تفسير أبي السعود١/١٢٩".

(٤)" المرجع السابق".

بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}؛[المائدة: ١٧].

قال الإمام الطبري- رحمه الله-:(هذا ذمٌّ من الله عز ذكره للنصارى، والنصرانية الذين ضلوا عن سبل السلام، واحتجاجٌ منه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في فريتهم عليه بادعائهم له ولداً؛ يقول جل ثناؤه: أُقسم؛ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم؛ وكفرُهم في ذلك: تغطيتُهم الحق في تركهم نفي الولد عن الله جل وعز، وادّعائهم أن المسيح هو الله فريةً، وكذباً عليه)(١).

* وقال تعالى- كذلك-:{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}؛ [المائدة: ٧٢- ٧٣].

قال الإمام ابن كثير- رحمه الله-:(والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابطٌ، ولا لكفرهم حدٌّ بل أقوالهم، وضلالهم منتشر؛ فمنهم: مَنْ يعتقده إلهاً، ومنهم: مَنْ يعتقده شريكاً، ومنهم: مَنْ يعتقده ولداً؛ وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة؛ ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال:: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً)(٢).

وفي قوله:{ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}؛(يقول: ليمسنّ الذين يقولون هذه المقالة، والذين يقولون المقالة الأخرى؛ هو المسيح ابن مريم لأن الفريقين: كلاهما كفرة مشركون؛ فلذلك رجع في الوعيد بالعذاب إلى العموم؛ ولم يقل: ليمسنهم عذاب أليم لأن ذلك لو قيل كذلك: صار الوعيد من الله تعالى ذكره خاصاً لقائل القول الثاني؛ وهم القائلون: الله ثالث ثلاثة، ولم يدخل فيهم القائلون: المسيح هو الله؛ فعمّ بالوعيد تعالى ذكره كُلَّ كافر ليعلم المخاطبون بهذه الآيات أن وعيد الله قد شمل كلا الفريقين من بني إسرائيل، ومَنْ كان من الكفار على مثل الذي هم عليه.

فإنْ قال قائل: وإنْ كان الأمر على ما وصفت؛ فعلى مَنْ عادت الهاء، والميم اللتان في قوله:{ منهم}؟؛ قيل:

(١)" تفسير الطبري٦/١٦٢: ١٦٣".

(٢)" تفسير ابن كثير١/٥٩٢"؛ وانظر:" هداية الحيارى/١٦٤".

على بني إسرائيل؛ فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا: وإنْ لم ينته هؤلاء الإسرائيليون عمّا يقولون في الله من عظيم القول: ليمسن الذين يقولون منهم: إن المسيح هو الله، والذين يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، وكل كافر سلك سبيلهم: عذابٌ أليم بكفرهم بالله)[١].

ورحم اللهُ الإمامَ ابن حزم القائل:(ولولا أن الله تعالى وصف قولهم في كتابه إذ يقول تعالى:{ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم}، وإذ يقول تعالى حاكياً عنهم:{ إن الله ثالث ثلاثة}، وإذ يقول تعالى:{ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله}؛ لما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم، الشنيع، السمج، السخيف؛ وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى: ما صدقنا أن في العالم عقلاً يسع هذا الجنون، ونعوذ بالله من الخذلان)[٢].

* وفي قوله تعالى:{ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}؛[الكافرون: ١- ٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:(فهو أمرٌ بالقول لجميع الكافرين من المشركين، وأهل الكتاب: فإن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أُنزل إليه من ربه: كافرون قد شهد عليهم بالكفر، وأمره بجهادهم، وكَفَّرَ مَنْ لم يجعلهم كافرين، ويوجب جهادهم؛ قال تعالى:{ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة}، وقال تعالى:{ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم}، وقال تعالى:{ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة}، وقال تعالى:{ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}؛ وحرف:" من" في هذه المواضع لبيان الجنس؛ فَتُبَيِّن جنس المتقدم وإن كان ما قبلها يدخل في جميع الجنس الذي بعدها بخلاف ما إذا كان للتبعيض كقوله:{ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب}؛ فإنه يدخل في الذين كفروا بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم جميعُ المشركين، وأهل الكتاب؛ وكذلك دخل في الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله

(١)" تفسير الطبري٦/٣١٤"؛ وانظر لزاماً في تحقيق قول طوائف النصارى:" دقائق التفسير لابن تيمية٢/٣٠: ٣١"،" الفتاوى لابن تيمية١٧/٢٧٤: ٢٧٥"، "الفتاوى الكبرى لابن تيمية٥/٢٦٩: ٢٧٧"،" الجواب الصحيح٢/١١: ١٥".

(٢)" الفصل في الملل١/٤٨".

ورسوله، ولا يدينون دين الحق: جميعُ أهل الكتاب الذين بلغتهم دعوته ولم يؤمنوا به؛...)[1].

ـــ وبالإضافة لما سبق: فـ(قد ذُكِر كفرُ اليهود، والنصارى في غير موضع)[2].

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(وجماع ذلك؛ أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم؛ فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه قولاً أو عملاً أو لا قولاً، ولا عملاً، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم)[3].

المطلب الثاني: الأدلة من السنة النبوية على كُفْر كُلِّ مَنْ لم يتديّن بدين الإسلام.

* جاء من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة؛ فإذا فعلوا ذلك: عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحق الإسلام؛ وحسابهم على الله"[4].

* وعن جابر- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله؛ فإذا قالوا لا إله إلا الله: عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها؛ وحسابهم على الله"[5].

* وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال:" أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئت به؛ فإذا فعلوا ذلك: عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها؛ وحسابهم على الله"[6].

وهذه النصوص النبوية ظاهرة، محكمة، غير قابلة للتأويل في كفر كل مَنْ لم يتدين بدين الإسلام.

قال النووي- رحمه الله-:(قوله:" أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله؛ فمَنْ قال لا إله إلا الله: فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله"؛ قال الخطابي- رحمه الله-: معلوم أن المراد بهذا: أهل الأوثان دون

---

(١)" الجواب الصحيح٣/٦٣: ٦٤".

(٢)" الجواب الصحيح٢/٨"؛ وانظر:" الجواب الصحيح٢/٨: ١١".

(٣)" اقتضاء الصراط المستقيم/٥".

(٤)" البخاري١/١٧"،" مسلم١/٥٣".

(٥)" مسلم١/٥٢".

(٦)" مسلم١/٥٢".

أهل الكتاب لأنهم يقولون: لا إله الا الله ثم يُقاتلون؛ ولا يُرفع عنهم السيف...؛ وذكر القاضي عياض معنى هذا، وزاد عليه، وأوضحه؛ فقال: اختصاص عصمة المال، والنفس بمَنْ قال: لا إله الا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بهذا: مشركو العرب، وأهل الأوثان، ومَنْ لا يوحد؛ وهم كانوا أول من دُعي إلى الإسلام، وقوتل عليه.

فأمّا غيرهم ممَّن يُقرّ بالتوحيد: فلا يكتفى فى عصمته بقوله:" لا إله الا الله" إذ كان يقولها فى كفره، وهي من اعتقاده؛ فلذلك جاء فى الحديث الآخر:" وأني رسول الله، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة"؛ هذا كلام القاضي.

قلتُ: ولابد مع هذا من الايمان بجميع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الرواية الأخرى لأبى هريرة وهي مذكورة فى الكتاب:" حتى يشهدوا أن لا اله الا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئتُ به"؛ والله أعلم)(١).

* وقد جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر:" لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله؛ يفتح الله علي يديه؛ قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ؛ قال: فتساورتُ لها رجاء أن أُدعى لها؛ قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليَّ بن أبي طالب؛ فأعطاه إياها؛ وقال: امشِ ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك؛ قال: فسار عليّ شيئاً ثم وقف ولم يلتفت؛ فصرخ: يا رسول الله؛ على ماذا أقاتل الناس؟!؛ قال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ فإذا فعلوا ذلك: فقد منعوا منك دماءهم، وأموالهم إلا بحقها؛ وحسابهم على الله"(٢).

* وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله؛ فإذا قالوها، وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا: فقد حُرّمت علينا دماؤهم، وأموالهم إلا بحقها؛ وحسابهم على الله"(٣).

* وقد أخرج الإمام البخاري- رحمه الله- بسنده عن حميد الطويل؛ قال:" سأل ميمونُ بن سياه أنسَ بن مالك؛ قال: يا أبا حمزة!؛ ما يُحرّم دمَ العبد، وماله؟!؛ فقال: مَنْ شهد أن لا إله إلا الله، واستقبل قبلتنا، وصلى صلاتنا،

---

(١)" شرح مسلم١/٢٠٦: ٢٠٧"؛ ونقله في:" عمدة القاري٨/٢٤٥".

(٢)" مسلم٤/١٨٧١".

(٣)" البخاري١/١٥٣".

وأكل ذبيحتنا: فهو المسلم؛ له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم"(١).

وهذه الأحاديث- أيضاً- كسابقتها: نصوصٌ ظاهرة، محكمة في كُفْر كُلِّ مَنْ لم يظهر دين الإسلام، ويتديّن به.

قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-:(وفيه: منعُ قَتْل مَنْ قال:" لا إله إلا الله"؛ ولو لم يزد عليها؛ وهو كذلك؛ لكن هل يُصير بمجرد ذلك مسلماً: الراجح لا بل يجب الكف عن قتله حتى يختبر؛ فإن شهد بالرسالة، والتزم أحكام الإسلام: حُكم بإسلامه؛ وإلى ذلك الإشارة بالإستثناء بقوله:" إلا بحق الإسلام"؛ قال البغوي: الكافر إذا كان وثنياً أو ثنوياً لا يقر بالوحدانية؛ فإذا قال:" لا إله إلا الله": حُكم بإسلامه ثم يُجبر على قبول جميع أحكام الإسلام، ويبرأ من كل دين خالف دين الإسلام.

وأمّا مَنْ كان مقراً بالوحدانية، منكراً للنبوة: فإنه لا يحكم بإسلامه حتى يقول:" محمد رسول الله"؛ فإنْ كان يعتقد أن الرسالة المحمدية إلى العرب خاصة: فلابد أن يقول إلى جميع الخلق؛ فإنْ كان كَفَرَ بجحود واجب أو استباحة محرم: فيحتاج أن يرجع عمّا اعتقده)(٢).

* وعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-؛ قال:" بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحدٌ حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم: فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه؛ وقال: يا محمد؛ أخبرني عن الإسلام؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً؛ قال: صدقتَ؛ قال: فعجبنا له: يسأله، ويصدّقه؛ قال: فأخبرني عن الإيمان؛ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر: خيره، وشره؛ قال: صدقتَ؛ قال: فأخبرني عن الإحسان؛ قال: أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه: فإنه يراك؛ قال: فأخبرني عن الساعة؛ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل؛ قال: فأخبرني عن إمارتها؛ قال: أن تَلد الأمةُ ربتها، وأن ترى الحفاة، العراة، العالة، رعاء الشاء يتطاولون في البنيان؛ قال: ثم انطلق؛ فلبثتُ ملياً ثم

(١)" البخاري١/١٥٣".

(٢)" فتح الباري١٢/٢٧٩".

قال لي: يا عمر؛ أتدري مَنْ السائل؟؛ قلتُ: الله، ورسوله أعلم؛ قال: فإنه جبريل؛ أتاكم: يعلمكم دينكم"[١].

قال النووي- رحمه الله-:(واتّفق أهل السنة من المحدثين، والفقهاء، والمتكلمين على أن المؤمن الذى يحكم بأنه من أهل القبلة، ولا يخلد فى النار؛ لا يكون إلا مَنْ اعتقد بقلبه دين الاسلام اعتقاداً جازماً، خالياً من الشكوك، ونطق بالشهادتين؛ فإن اقتصر على أحداهما: لم يكن من أهل القبلة أصلاً إلا إذا عجز عن النطق لخلل فى لسانه أو لعدم التمكن منه لمعاجلة المنية أو لغير ذلك: فإنه يكون مؤمناً؛ أمّا إذا أتى بالشهادتين: فلا يشترط معهما أن يقول: وأنا بريء من كل دين خالف الاسلام إلا إذا كان من الكفار الذين يعتقدون اختصاص رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى العرب: فإنه لا يحكم بإسلامه إلا بأن يتبرأ)[٢].

* وفي الحديث المتفق عليه عن ابن عباس- رضي الله عنه-؛ قال:" إن وفد عبد القيس أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ الوفد- أو مَنْ القوم-؟؛ قالوا: ربيعة؛ قال مرحباً بالقوم- أو بالوفد- غير خزايا، ولا الندامى؛ قال: فقالوا: يا رسول الله؛ إنّا نأتيك من شقة بعيدة، وإن بيننا وبينك: هذا الحي من كفار مضر، وإنّا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر الحرام؛ فَمُرنا بأمر فصلٍ: نخبر به مَنْ وراءنا، وندخل به الجنة؛ قال: فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع؛ قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده، وقال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟؛ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمساً من المغنم..."؛ الحديث[٣].

* وفي الحديث المتفق عليه- كذلك- عن ابن عمر- رضي الله عنهما-؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" بُني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان"[٤].

---

(١)" البخاري١/٢٧"،" مسلم١/٣٧"؛ واللفظ له.

(٢)" شرح مسلم١/١٤٩"؛ ونقله عنه مقراً له: العيني في:" عمدة القاري١/١١٠".

(٣)" البخاري١/٢٩"،" مسلم١/٤٧".

(٤)" البخاري١/١٢، ٤/١٦٤١"،" مسلم١/٤٥".

وفي هذا الحديث؛(المقصود: تمثيلُ الإسلام بالبنيان؛ ودعائم البنيان: هذه الخمس: فلا يثبت البنيان بدونها، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان؛ فإذا فُقد منها شيء: نقص البنيان وهو قائم لا ينقص بنقص ذلك بخلاف نقص هذه الدعائم الخمس: فإن الإسلام يزول بفقدها جميعاً بغير إشكال، وكذلك يزول بفقد الشهادتين؛ والمراد بالشهادتين: الإيمان بالله، ورسوله)[1].

فالحديثان المتقدّمان: نصّان صحيحان، صريحان في أن الإيمان بالله عز وجل، والدخولَ في دينه الإسلام: لا يمكن أن يتحققا إلا بالشهادة للنبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم بالرسالة مع التزام أحكام شرعه الخاتم.

ومن ثم؛ فإنّ كُفر كل مَنْ لم ينطق بالشهادتين، ويقر للنبي محمد صلوت ربي وسلامه عليه بالرسالة، ويلتزم شرعه: هو من المُسلّمات، البديهيات.

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(وقد اتفق المسلمون على أنه مَنْ لم يأت بالشهادتين: فهو كافر)[2].

* وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:" والذي نفسُ محمد بيده: لا يَسمع بي أحدٌ من هذه الأمة: يهودي، ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار"[3].

قال العراقي- رحمه الله- في فوائد هذا الحديث:(الثانية: قوله:" لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة"؛ يتناول جميع أمة الدعوة: مَنْ هو موجودٌ في زمنه، ومَنْ يتجدّد وجوده بعده إلى يوم القيامة؛ فذكره اليهودي، والنصراني بعد ذلك من ذكر الخاص بعد العام؛ وإنما ذكرهما تنبيهاً على مَنْ سواهما؛ وذلك لأن اليهود، والنصارى لهم كتاب؛ فإذا كان هذا شأنهم مع أنّ لهم كتاباً: فغيرهم ممّن لا كتاب له أولى...

الرابعة: وفيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم...

السادسة: وفيه تكفير مَنْ أنكر بعضَ ما جاء به إذا ثبت ذلك بنص قطعي، وأجمعت عليه الأمة؛ والله أعلم)[4].

---

(١)" جامع العلوم والحكم/٤٣".

(٢)" الفتاوى٧/٣٠٢"؛ وانظر:" جامع العلوم والحكم/٢٥".

(٣)" مسلم١/١٣٤".

(٤)" طرح التثريب في شرح التقريب٧/١٤٩"؛ ونحوه في:" شرح النووي على صحيح مسلم٢/١٨٨".

وقد قال ابن حزم- رحمه الله-:(فإنما أوجب النبيُّ صلى الله عليه وسلم الإيمانَ به على مَنْ سَمَعَ بأمره صلى الله عليه وسلم؛ فكلُّ مَنْ كان في أقاصي الجنوب، والشمال، والمشرق، وجزائر البحور، والمغرب، وأغفال الأرض من أهل الشرك؛ فسمع بذكره صلى الله عليه وسلم: ففرضٌ عليه البحث عن حاله، وإعلامه، والإيمان به)(١).

* وقد جاء من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-؛ قال:"كنّا مع النبي في قبّة؛ فقال: أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟؛ قلنا: نعم؛ قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟؛ قلنا: نعم؛ قال: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟؛ قلنا: نعم؛ قال: والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة؛ وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة؛ وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر"(٢).

* وفي رواية عند مسلم:" قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؛ قال: فَكَبّرنا؛ ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؛ قال: فَكَبّرنا؛ ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة؛ وسأخبركم عن ذلك: ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود أو كشعرة سوداء في ثور أبيض"(٣).

* وعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-:" أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه يوم الحج الأكبر بأربع: أن لا يطوف أحدٌ بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ولا يحج مشرك بعد عامه هذا، ومَنْ كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدٌ؛ فأجلُه إلى مدّة"(٤).

* وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال:"كنتُ مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة ببراءة؛ فقيل: ما كنتم تنادون؟؛ فقال: كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومَنْ كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدٌ؛ فأجله، ومدة عهده إلى أربعة أشهر؛ فإذا مضت الأربعة الأشهر: فإن الله بريء من المشركين، ورسولَه، ولا يحج بعد العام مشرك؛ فكنت أنادي حتى صحل

(١)" الإحكام لابن حزم٥/١٠٩".

(٢)" البخاري٥/٢٣٩٢"،" مسلم١/٢٠٠".

(٣)" مسلم١/٢٠٠".

(٤)" المستدرك٤/١٩٨"،" سنن الترمذي٣/٢٢٢"،" مصنف ابن أبي شيبة٣/٣٣٢".

صوتي"(١).

* وعن بشر بن سخيم- رضي الله عنه-؛ قال:" خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أيام الحج؛ فقال: إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإنها أيام أكل وشرب"(٢).

وقد ترجم الإمام أبو عوانة- رحمه الله- لهذه الأحاديث بقوله:" بيان أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وأن نصف أهل الجنة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، والدليل على أنه لا يكون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا مسلماً، وأن شفاعته لأمته دون سائر الأمم الذين يتبعونه، ويقتدون به من الأقربين، والأبعدين، وأن التقرّب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالتقوى"(٣).

وقد قال الإمام أبو عوانة- رحمه الله- كذلك-:(قد صحّ في حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بلالاً أن ينادي: أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وأمر عمر أن ينادي: لا يدخل الجنة إلا المؤمنون؛ وقال الله تبارك وتعالى:{ ومَنْ يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين})(٤).

ـــــ فهذه الأحاديث تُبيّن بجلاء أن الخلق على الحقيقة: قسمان لا ثالث لهما: مسلمون، وكفار؛ فمَنْ لم يكن مسلماً: فهو كافر ضرورة انحصار الخلق في هذين القسمين لا غير كما قال تعالى:{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}؛[التغابن: ٢].

قال ابن كثير- رحمه الله-:(أي: هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك: فلابد من وجود مؤمن، وكافر؛ وهو البصير بمَنْ يستحق الهداية ممَّن يستحق الضلال؛ وهو شهيد على أعمال عباده، وسيجزيهم بها أتمّ الجزاء؛ ولهذا قال تعالى:{ والله بما تعملون بصير})(٥).

---

(١)" المستدرك٤/١٩٨"،" سنن الدارمي٢/٣٠٩".

(٢)" النسائي الكبرى٢/١٦٩"،" ابن ماجه١/٥٤٨"،" مسند أحمد٣/٤١٥"،" تهذيب الآثار٣/٢٦٧"،" الآحاد والمثاني٢/٢٤١، ٢٤٢"،" المعجم الكبير٢/٣٧"؛ وانظر:" تهذيب الآثار٣/٢٥٧: ٢٧٢".

(٣)" مسند أبي عوانة١/٨٤".

(٤)" مسند أبي عوانة١/٥٣".

(٥)" تفسير ابن كثير٤/٣٧٥".

المطلب الثالث: نبذة من نصوص الأئمة في كُفْر كُلِّ مَنْ لم يتديّن بدين الإسلام.

ونصوص أئمة الإسلام في تقرير هذه الحقيقة الكلية: كثيرةٌ، مشهورة، منشورة؛ منها:

قول الإمام الشافعي- رحمه الله-:(بعثَ اللهُ جل جلاله محمداً صلى الله عليه وسلم؛ ففرض الإيمانَ به، وأمر باتّباع رسوله صلى الله عليه وسلم، وطاعة أمره، وأعلم خلقَه أن طاعته طاعتُه، وأن دينه الإسلام الذي نسخَ به كلَّ دين كان قبله، وجعل مَنْ أدركه، وعلم دينه؛ فلم يتبعه: كافراً به؛ فقال:{ إن الدين عند الله الإسلام}؛ فكان هذا في القرآن، وأنزل عز وجل في أهل الكتاب من المشركين:{ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم- إلى قوله-: مسلمون}، وأمرنا بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون إن لم يسلموا، وأنزل فيهم:{ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل- إلى قوله-: والأغلال التي كانت عليهم}؛...

فلم يبق خلقٌ يعقل منذ بعثَ اللهُ تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم: كتابي، ولا وثني، ولا حي ذو روح من جن، ولا إنس بلغته دعوةُ محمد صلى الله عليه وسلم إلا قامت عليه حجة الله عز وجل باتّباع دينه، وكان مؤمناً باتباعه، وكافراً بترك اتباعه)[1].

وقال ابن تيمية- رحمه الله-:(فإن اليهود، والنصارى: كفارٌ كفراً معلوماً بالإضطرار من دين الإسلام)[2].

وقال- رحمه الله- أيضاً-:(وأمّا الردة عن الإسلام بأن يصير الرجل كافراً: مشركاً أو كتابياً؛ فإنه إذا مات على ذلك: حَبِطَ عملُه باتفاق العلماء كما نطق بذلك القرآن في غير موضع كقوله:{ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة}، وقوله:{ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله})[3].

وعقد الإمام ابن القيم- رحمه الله- فصلاً في كتابه:" طريق الهجرتين" عَنْونَ له بقوله:" فصل في مراتب المكلفين في الدار الآخرة وطبقاتهم فيها وهم ثمان عشرة طبقة"؛ قال فيه:

---

(١)" الأم٢/٢٤٢: ٢٤٣"،" أحكام القرآن٢/٩٦".

(٢)" الفتاوى٣٥/٢٠١".

(٣)" الفتاوى٤/٢٥٧: ٢٥٨".

(الطبقة السادسة عشرة: رؤساء الكفر، وأئمته، ودعاته الذين كفروا، وصدّوا عبادَ الله عن الإيمان، وعن الدخول في دينه رغبةً، ورهبة؛ فهؤلاء: عذابهم مضاعف، ولهم عذابان: عذاب بالكفر، وعذاب بصدّ الناس عن الدخول في الإيمان؛ قال الله تعالى:{ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب}؛ فأحد العذابَيْن بكفرهم، والعذاب الآخر بصدّهم عن سبيل الله...

السابعة عشرة: طبقة المقلدين، وجهال الكفرة، وأتباعهم، وحميرهم الذين هم معهم تبعاً لهم؛ يقولون: إنّا وجدنا آباءنا على أمة، وإنّا على أسوة بهم؛ ومع هذا: فهم متاركون لأهل الإسلام، غير محاربين لهم كنساء المحاربين، وخدمهم، وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصبت له أولئك أنفسَهم من السعي في إطفاء نور الله، وهدم دينه، وإخماد كلماته بل هم بمنزلة الدواب؛ وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفارٌ وإنْ كانوا جهالاً، مقلدين لرؤسائهم، وأئمتهم...)[١].

ـــــ ولَمّا كان كُفرُ كلِّ مَنْ لم يتدين بدين الإسلام من المعلوم من الدين بالضرورة: لم يكتفِ أئمة الإسلام بتكفير كل من لم يتدين بدين الإسلام بل كَفّروا مَنْ لم يكفرهم أو شكّ في كفرهم.

قال القاضي عياض– رحمه الله–:(أخْبَر صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم أنَّه خَاتَم النَّبِيّين لَا نَبِيّ بَعْدَه، وأخْبَر عن الله تَعَالَى أنَّه خَاتَم النَّبِيّين، وَأنَّه أُرْسِل كافّةً لِلنّاس...؛ ولهذا نُكَفّر مَنْ لم يُكَفّر مَنْ دَان بِغَيْر مِلّة الْمُسْلِمِين مِن المِلَل أَو وَقَف فِيهِم أَو شَكّ أَو صَحَّح مَذْهَبَهُم وإن أظْهَر مَع ذَلِك الْإسْلَام، وَاعْتَقَدَه، وَاعْتَقَد إبْطَال كُلّ مذْهَب سِواه؛ فَهُو كَافِر بإظْهَارِه مَا أظْهَر من خِلَاف ذَلِك)[٢].

وقال– رحمه الله– أيضاً– عمّن لم يكفر أحداً من أهل الكتاب:(وقائِل هَذَا كُلُّه: كافرٌ بالإجْماع على كفر مَنْ لم يكفر أحدًا مِن النَّصَارَى، واليَهُود، وَكُلّ مَنْ فَارَق دِين الْمُسْلِمِين أَو وَقَف فِي تكفيرهم أو شك؛ قَال الْقَاضِي أَبُو بَكْر: لِأَنّ التّوقِيف، والإجْماع اتّفَقَا عَلَى كُفْرِهِم؛ فَمَن وقف فِي ذَلِك: فَقَد كذّب النَّصَّ، والتّوْقِيف أَو شَكّ فِيه؛ والتكذيب أو الشك فِيه لَا يقع إلا من كافر)[٣].

---

(١)" طريق الهجرتين/٦٠٤: ٦٠٧".

(٢)" الشفا بتعريف حقوق المصطفى٢/٢٨٥: ٢٨٦"؛ ونقله مقراً له: البقاعي في:" مصرع التصوف/٣٢".

(٣)" الشفا بتعريف حقوق المصطفى٢/٢٨١".

وجاء في:" روضة الطالبين"؛ من فقه الشافعية في بيان نواقض الإسلام:(أو ادّعى أنه يُوحى إليه وإنْ لم يَدع النبوة أو ادّعى أنه يدخل الجنة، ويأكل من ثمارها، ويعانق الحور: فهو كافر بالإجماع قطعاً، وأن مَنْ دافع نصَّ الكتاب أو السنة المقطوع بها المحمول على ظاهره: فهو كافر بالإجماع، وأن مَنْ لم يكفر مَنْ دان بغير الإسلام كالنصارى أو شك في تكفيرهم أو صحّح مذهبهم: فهو كافر وإن أظهر مع ذلك الإسلام، واعتقده)[١].

وجاء في متن:" الإقناع" من فقه الحنابلة؛ ما نصّه:" باب: حكم المرتد؛ وهو الذي يكفر بعد إسلامه ولو مميزاً طوعاً أو هازلاً؛ فمَنْ أشرك بالله أو جحد ربوبيته أو وحدانيته أو صفةً من صفاته...

أو لم يُكفر مَنْ دان بغير دين الإسلام كالنصارى أو شَكّ في كفرهم أو صَحّح مذهبهم"[٢].

قال في البيهوتي- رحمه الله- في شرحه:(أو لم يكفر من دان؛ أي: تديّن بغير الإسلام كالنصارى، واليهود أو شكّ في كفرهم أو صحّح مذهبهم؛ فهو كافر لأنه مكذّب لقوله تعالى:{ ومَنْ يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين})[٣].

---

(١)" روضة الطالبين١٠/٧٠"، ونحوه تماماً في:" مغني المحتاج٤/١٣٥"،" حواشي الشرواني٩/٨٤"،" أسنى المطالب في شرح روض الطالب٤/١١٩".

(٢)" الإقناع٤/٢٩٧: ٢٩٨".

(٣)"كشف القناع٦/١٧٠"، ونحوه تماماً في:" مطالب أولي النهى٦/٢٨١"،" شرح منتهى الإرادات٣/٣٩٥".

الأصل السادس

وجوب اجتناب الشرك عامةً

فإذا كان تحقيق التوحيد بإفراد الله تعالى وحده بالعبادة؛ هو: الغاية الأساس من بعث الأنبياء، والمرسلين كما سبق مفصّلاً: فإن هذه الغاية لا تتحقق- قطعاً- إلا باجتناب الشرك؛ ومن ثم: كان اجتناب الشرك عامة من حقيقة العبادة كما هو من حقيقة الإسلام.

ومن المقطوع به أثراً، ونظراً: أن(نسبة الشرك من التوحيد نسبةُ الليل من النهار، والعمى من الأبصار؛ يَعرض للأمم...؛ كما يعرض الظلام للضياء، ويطرأ عليها كما تطرأ الأسقام على الأجسام؛ غير أن الظلام باعث لنوم الأبصار لإفادة الراحة للأشباح؛ أمّا الشرك: فعلة لنوم البصائر الموجب لشقاء الأرواح؛ وإذا كان حفظ الصحة بالغذاء، والدواء: فإن حفظ التوحيد بالعلم، والدعوة؛ ولا يحفظ التوحيدَ علمٌ كعلم الكتاب، والسنة، ولا تجلي الشركَ دعوةٌ كالدعوة بأسلوبهما)[1].

ــــــ ونتكلم في هذا الأصل شديد الأهمية من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: حقيقة الشرك في دين الأنبياء، والمرسلين.

قال الشوكاني- رحمه الله-:(الشرك؛ هو: أن يفعل لغير الله شيئاً يختصّ به سبحانه؛ سواء أطلق على ذلك الغير ما كانت تطلقه عليه الجاهلية أو أطلق عليه اسماً آخر؛ فلا اعتبار بالاسم قط)[2].

(وأصل الشرك: أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده؛ فإنه لم يعدل أحدٌ بالله شيئاً من المخلوقات في جميع الأمور)[3]؛(فمَنْ عدل بالله غيرَه فى شيء من خصائصه سبحانه وتعالى: فهو مشرك)[4].

---

(١)" الشرك ومظاهره/١١".

(٢)" الدر النضيد/٧٠".

(٣)" الاستقامة لابن تيمية/٣٤٤".

(٤)" الفتاوى لابن تيمية١٣/١٩".

(وحقيقة الشرك بالله: أن يُعبد المخلوق كما يُعبد الله أو يُعظم كما يعظم الله أو يُصرف له نوعٌ من خصائص الربوبية، والإلهية)(١).

وقد قال السعدي- رحمه الله-:(فإن حدّ الشرك الأكبر، وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده: أن يَصرف العبدُ نوعاً أو فرداً من أفراد العبادة لغير الله؛ فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع؛ فصَرْفُه لله وحده: توحيدٌ، وإيمانٌ، وإخلاص؛ وصرفه لغيره: شركٌ، وكفر؛ فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء)(٢).

ـــــ وعلى سبيل الإجمال الجامع، البليغ؛ فـ(إن الشرك حقيقته في اتخاذ الند مع الله؛ سواء كان هذا الند في الربوبية أو الألوهية)(٣).

* وقد قال الله تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}؛[البقرة: ٢١- ٢٢].

وفي هاتين الآيتين: بعد أن أَمَرَ الله تعالى أمراً مباشراً بعبادته سبحانه وحده؛ قال:{ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}؛ والأنداد؛ جمع: ند، والند؛ هو: الشبيه، والكفوء، والمثل، والعدل، والمساوي، والمنازع، والشريك(٤)؛ وكلها ألفاظ تدور حول معنى واحد؛ و(معنى الآية: النهي عن اتخاذ الأنداد مع الله بأي وجه من الوجوه)(٥).

قال الإمام الطبري- رحمه الله-:(فنهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئاً، وأن يعبدوا غيره أو يتخذوا له نداً، وعدلاً في الطاعة؛ فقال: كما لا شريك لي في خلقكم، وفي رزقكم الذي أرزقكم، وملكي إياكم، ونعمتي التي أنعمتها عليكم؛ فكذلك: فأفردوا لي الطاعة، وأخلصوا لي العبادة، ولا تجعلوا لي شريكاً، ونداً من خلقي)(٦).

---

(١)" تفسير السعدي/٢٧٩".

(٢)" القول السديد/٤٨"؛ وانظر في تعريف الشرك، وبيان حدّه، وأنواعه:" التعريفات الاعتقادية/٢٠٣: ٢٠٥"،" الشرك في القديم والحديث١/١١٨: ١٢١".

(٣)" الشرك في القديم والحديث١/١٢١".

(٤) انظر:" تفسير الطبري١/١٦٣"،" التفسير الكبير للرازي٢/١٠٣، ٤/١٨٤"،" تفسير أبي السعود١/٦٢"،" الدر المنثور١/٨٧: ٨٩".

(٥)" الشرك في القديم والحديث١/١٢٢".

(٦)" تفسير الطبري١/١٦٣".

وقد عَقد الإمام البخاري- رحمه الله- باباً في كتاب التفسير من صحيحه؛ فقال:" باب: قوله تعالى:{ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون}"(١).

ثم ساق الإمام بسنده عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه؛ قال:" سألتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم؛ أيُّ الذنبِ أعظمُ عند الله؟؛ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك..."؛ الحديث(٢).

* وفي رواية؛ قال ابن مسعود- رضي الله عنه-:" قال رجلٌ: يا رسول الله؛ أي الذنب أكبر عند الله؟!؛ قال: أن تدعو لله نداً وهو خلقك؛ قال: ثم أي؟!؛ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك؛ قال: ثم أي؟!؛ قال: أن تزاني حليلة جارك؛ فأنزل الله عز وجل تصديقها:{ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً}"(٣).

قلت: فكانت حقيقة الشرك؛ هي: أن يتخذ العبد أنداداً لله في ذاته أو أسمائه وصفاته أو أفعاله أو عبادته قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً(٤).

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(فمَنْ عدل بالله غيرَه فى شيء من خصائصه سبحانه وتعالى: فهو مشرك)(٥).

وقال ابن القيم- رحمه الله-:(حقيقة الشرك هو التشبّه بالخالق، والتشبيه للمخلوق به...؛ فالمشرك مشبّه للمخلوق بالخالق في خصائص...)(٦).

وقد قال المقريزي- رحمه الله-:(وبالجملة؛ فالتشبيه، والتشبه: هو حقيقة الشرك؛ ولذلك كان مَنْ ظنّ أنه إذا تقرب إلى غيره بعبادة ما يقربه ذلك الغير إليه تعالى: فإنه يخطئ لكونه شبّهه به، وأخذ ما لا ينبغي أن يكون إلا له؛ فالشرك منعه سبحانه وتعالى حقّه؛ فهذا قبيحٌ- عقلاً، وشرعاً-؛ ولذلك لم يشرع، ولم يغفر له)(٧).

---

(١)" صحيح البخاري٤/١٦٢٦".

(٢)" البخاري٤/١٦٢٦":(كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى:{ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون}، ح: ٤٢٠٧)،" مسلم١/٩٠":(كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، ح: ٨٦).

(٣)" مسلم١/٩٠":(كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، ح: ٨٦).

(٤) انظر في تفصيل هذه الجملة مبحثاً فريداً في:" الجواب الكافي لابن القيم/٩٤: ١٠٠".

(٥)" الفتاوى لابن تيمية١٣/١٩".

(٦)" الجواب الكافي/٩٤".

(٧)" تجريد التوحيد/٣٣".

المطلب الثاني: عظيم أمر الشرك في دين الإسلام.

تقبيح الشرك، وذمّه، وبيان ضرره، وعظيم خطره في الدنيا، والآخرة ممّا يمتلىء به كتاب الله؛ وكما يُعلم: فإن هاتين المادتين- ش ر ك، ك ف ر- بتصريفاتهما المختلفة، وتراكيبهما المتعددة من أكثر المواد دوارناً في كتاب الله؛ وهذا وحده كافٍ في التدليل على قبح الشرك، وشدة ضرره، وعظيم خطره في الدنيا، والآخرة.

* وقد قال تعالى:{ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}؛[لقمان:١٣].

فصرّح تعالى بأن الشرك: ظلمٌ عظيم؛(أي: هو أعظم الظلم)(١)؛ وذلك(لأن التسوية بين مَنْ لا نعمة إلا هي منه، ومَنْ لا نعمة منه البتة ولا يُتصوّر أن تكون منه: ظلمٌ لا يُكتنه عظمُه)(٢).

قال الرازي- رحمه الله-:(أمّا أنه ظلم؛ فلأنه وَضْعٌ للنفس الشريف المكرّم بقوله تعالى:{ ولقد كرمنا بني آدم}؛ في عبادة الخسيس أو لأنه وضعَ العبادة في غير موضعها؛ وهي غير وجه الله وسبيله.

وأمّا أنه عظيم؛ فلأنه وضع في موضع ليس موضعه، ولا يجوز أن يكون موضعه؛ وهذا لأن مَنْ يأخذ مال زيد ويعطي عمراً: يكون ظلماً من حيث إنه وضع مال زيد في يد عمرو؛ ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتمليك لاحق؛ وأمّا الإشراك: فوضع المعبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبوداً أصلاً)(٣).

وقد قال السعدي- رحمه الله-:(ووجه كونه ظلماً، عظيماً؛ أنه: لا أفظع، ولا أبشع ممَّن سوَّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمالك الأمر كله، وسوَّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوَّى مَنْ لا يستطيع أن يُنعم بمثقال ذرة من النعم بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم، ودنياهم، وأخراهم، وقلوبهم، وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو؛ فهل أعظم من هذا الظلم شيءٌ؟!، وهل أعظم ظلماً ممَّن خلقه الله لعبادته، وتوحيده؛ فذهب بنفسه الشريفة: فجعلها في أخس المراتب؛ جعلها عابدةً

(١)" تفسير ابن كثير٣/٤٤٥".

(٢)" الكشاف٣/٥٠٠".

(٣)" التفسير الكبير٢٥/١٢٨".

لِمَنْ لا يُساوي شيئاً؛ فظلم نفسَه ظلماً كبيراً؟!)[1].

ـــــ وقد قبّح الله الشرك، وذمّه، وذمَّ أهلَه أبلغ ذمٍّ، وأشدّه ببيان عجز تلك الأنداد المختلفة التي يتخذها العباد معه سبحانه وتعالى؛ فقال:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}؛[الحج: ٧٣].

و(حقيقٌ على كل عبد أن يستمع قلبُه لهذا المثل، ويتدبّره حقّ تدبره فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه؛ وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضرّه؛ والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه؛ فكيف ما هو أكبر منه؟!، ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً ممّا عليهم من طيب، ونحوه فيستنقذوه منه؛ فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه؛ فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها!؛ فكيف يستحسن عاقلٌ عبادتها من دون الله؟!.

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك، وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة)[2].

* وقال تعالى- أيضاً-:{ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}؛[العنكبوت: ٤١].

قال ابن جزي- رحمه الله-:(شبّه الله الكافرين في عبادتهم للأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتاً ضعيفاً؛ فكان ما اعتمدت عليه العنكبوت في بيتها ليس بشيء؛ فكذلك ما اعتمدت عليه الكفار من آلهتهم ليس بشيء لأنهم لا ينفعون، ولا يضرون)[3].

ـــــ وفي هذا المثل القرآني عن المشركين(أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياءهم أضعف منهم؛ فهم في ضعفهم، وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتاً؛ وهو أوهن البيوت، وأضعفها؛ وتحت هذا المثل: أن

---

(١)" التفسير الكبير٢٥/١٢٨".

(٢)" إعلام الموقعين١/١٨١".

(٣)" التسهيل لعلوم التنزيل٣/١١٧".

هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء؛ فلم يستفيدوا بِمَن اتخذوهم أولياء إلا ضعفاً...؛ وهذا من أحسن الأمثال، وأدلها على بطلان الشرك، وخسارة صاحبه، وحصوله على ضد مقصوده)[1].

* وقد قال تعالى- كذلك-:{ حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}[الحج: ٣١].

وهذه الآية ممّا تنخلع له القلوب خوفاً، وفزعاً من الشرك، وسوء عاقبته؛ قال ابن عباس- رضي الله عنه-:" أكبر الكبائر الإشراك بالله لأن الله يقول:{ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير}؛ الآية..."[2].

* وعن قتادة- رحمه الله-؛ قال:" هذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بُعده من الهدى، وهلاكه؛ فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق"[3].

قال الزمخشري- رحمه الله-:(ويجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب، والمفرق؛ فإن كان تشبيهاً مركباً؛ فكأنه قال: مَنْ أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة حال من خَرّ من السماء؛ فاختطفته الطير: فتفرّق مزعاً في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة.

وإن كان مفرّقاً؛ فقد شبّه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة)[4].

ـــــ وقد بَيّن الله تعالى أن أعمال المشركين وإن كانت في الظاهر عظيمة، جليلة بل ملء السمع، والبصر؛ فهي في الحقيقة لا تُساوي شيئاً، ولا قيمة لها بل هي والعدم سواء كونها قامت على الشرك، وبه.

* قال تعالى:{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ

(١)" إعلام الموقعين١/١٥٥".

(٢)" تفسير الطبري٥/٣٨، ١٣/١٤٣".

(٣)" تفسير الطبري١٧/١٥٥".

(٤)" الكشاف٣/١٥٦: ١٥٧"؛ ونحوه في:" التفسير الكبير٢٣/٢٩"،" إعلام الموقعين١/١٨٠".

ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ}؛ [النور: ٣٩-٤٠].

قال القرطبي- رحمه الله-:(ضرب تعالى مثلاً آخر للكفار؛ أي: أعمالهم كسراب بقيعة أو كظلمات؛ قال الزجاج: إنْ شئت: مثّل بالسراب، وإنْ شئت: مثّل بالظلمات)[١].

فلمّا ذكر الله حال المؤمنين قبل هذه الآيات؛ أعقب ذلك بمثالين لأعمال الكافرين؛ الأول: يقتضي حال أعمالهم في الآخرة وأنها لا تنفعهم بل يضمحل ثوابها كما يضمحل السراب، والثاني: يقتضي حال أعمالهم في الدنيا وأنها في غاية الفساد، والضلال كالظلمات التي بعضها فوق بعض[٢].

* وقال تعالى- كذلك-:{ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ}؛[إبراهيم: ١٨].

قال الإمام العز بن عبد السلام- رحمه الله-:(شبّه تعذر وصولهم إلى ثواب شيء من أعمالهم بتعذر جمع الرماد الذي اشتدت به الرياح في يوم عاصف؛ وهذا أبلغ في الزجر عن الكفر لأنه جعله محبطاً لجميع أعمالهم)[٣].

ـــ فهذه الآية الكريمة ظاهرة في أن أعمال المشركين بأسرها تصير ضائعة، باطلة، لا ينتفعون بشيء منها؛ وعند هذا يظهر كمال خسرانهم لأنهم لا يجدون في القيامة إلا العقاب الشديد؛ وكل ما عملوه في الدنيا: وجدوه ضائعاً، باطلاً؛ وذلك هو الخسران الشديد[٤].

وتأمّل قوله:{ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ}؛ فـ(العصف: اشتداد الريح؛ وصف به زمانُها مبالغةً كقولك: ليلة ساكرة؛ وإنما السكور لريحها؛ شُبّهت صنائعهم المعدودة لابتنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى، والإيمان به، والتوجّه بها إليه تعالى برماد طيرته الريح العاصفة)[٥].

---

(١)" القرطبي١٢/٢٨٣"؛ ونحوه في:" التفسير الكبير٢٣/٢٩"،" إعلام الموقعين١/١٨٠".

(٢) انظر:" التسهيل لعلوم التنزيل٣/٦٩"،" إعلام الموقعين١/١٥٥: ١٥٨"،" الإيضاح في علوم البلاغة/٢٢٠".

(٣)" الإمام في بيان أدلة الأحكام/١٤٦"؛ وانظر:" أضواء البيان٢/٢٤٥".

(٤) انظر:" التفسير الكبير١٩/٨٣".

(٥)" تفسير أبي السعود٥/٤٠".

- وفي تشبيه أعمال المشركين بالرماد(سرٌّ بديع؛ وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم، وبين الرماد في إحراق النار، وإذهابها لأصل هذا، وهذا؛ فكانت الأعمال التي لغير الله، وعلى غير مراده طعمةً للنار، وبها تُسعّر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة ناراً، وعذاباً)[1]؛ وفي هذا ما فيه من ذم الشرك، والتخويف منه، وبيان سوء عاقبته.

* وقال تعالى- أيضاً-:{ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا }؛[الفرقان: ٢٣].

قال ابن الجوزي- رحمه الله-:(قوله تعالى:{ وقدمنا}؛ قال ابن قتيبة: أي: قصدنا، وعمدنا؛ والأصل أن مَنْ أراد القدوم إلى موضع: عَمد له، وقَصده؛ قوله تعالى:{ إلى ما عملوا من عمل}؛ أي: من أعمال الخير؛{فجعلناه هباء}؛ لأن العمل لا يُتقبّل مع الشرك؛ وفي الهباء خمسة أقوال:

أحدها: أنه ما رأيته يتطاير في الشمس التي تدخل من الكوة مثل الغبار؛ قاله علي عليه السلام، والحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، واللغويون؛ والمعنى: أن الله أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء.

والثاني: أنه الماء المهراق؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثالث: أنه ما تنسفه الرياح، وتذريه من التراب، وحطام الشجر؛ رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس.

والرابع: أنه الشرر الذي يطير من النار إذا أُضرمت؛ فإذا وقع لم يكن شيئاً؛ رواه عطية عن ابن عباس.

والخامس: أنه ما يسطع من حوافر الدواب؛ قاله مقاتل؛ والمنثور: المتفرق)[2].

وعلى الأقوال الخمسة في معنى الهباء؛ فالآية ظاهرة الدلالة في شؤم الشرك على الأعمال، وأنه متى خالط الأعمال: أفسدها، وأبطلها بالكلية؛ وتأمّل الجمع في الآية بين:{ هَبَاءً}، و{ مَّنثُورًا}؛ فهو دال على أن الشرك متى خالط الأعمال: جعلها- حقاً- كالعدم!؛ فإن(العبادة لا تُسمّى عبادة إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تُسمّى صلاة إلا مع الطهارة؛ فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة)[3].

---

(١)" إعلام الموقعين١/١٧١".

(٢)" زاد المسير٦/٨٣".

(٣)" القواعد الأربعة وشرحها/١٤".

ـــــــ وقد صرّحت جملة من الآيات بأن الشرك محبطٌ للأعمال بالكلية؛ منها:

* قوله تعالى:{ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}؛[المائدة: ٥].

* وقال تعالى:{ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}؛ [الأعراف: ١٤٧].

* وقال تعالى:{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ}؛[التوبة: ١٧].

* وقال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ}؛[محمد: ٣٢].

ـــــــ وهذه الآيات البينات: متتابعة على تقرير أصل كلي، قطعي، مطّرد، لا استثناء فيه بوجه من الوجوه؛ وهو(أن الشرك يُحبط الأعمال)[١].

قال الرازي- رحمه الله-:(وكيف لا؟!؛ والعمل من المشرك لا يقع لوجه الله؛ فلا بقاء له في نفسه، ولا بقاء له ببقاء مَنْ له العمل لأن ما سوى وجه الله تعالى: هالكٌ، محبطٌ!)[٢].

ـــــــ وإذا كان الشرك محبطاً للأعمال كلها؛ فلا غرو أن يُوجب لصاحبه- عياذاً بالله- عدمَ المغفرة؛ ومن ثم: العذاب، والخلود في النار أبداً.

* قال الله تعالى:{ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}؛[النساء: ٤٨].

* وقال تعالى:{ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا}؛[النساء: ١١٦].

(١)" الإحكام لابن حزم٥/١٠٧"؛ ونحوه في:" التفسير الكبير٢٨/٤٣"،" تفسير السعدي/٢٦٤"،" تيسير العزيز الحميد/٤١٣، ٤٧٧".

(٢)" التفسير الكبير٢٨/٤٣".

* وقد قال تعالى -كذلك-:{ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}؛[المائدة: ٧٢].

* وقد جاء من حديث أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها-؛ قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدواوين ثلاثة: فديوان لا يغفر الله منه شيئاً، وديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً؛ فأمّا الديوان الذي لا يغفر الله منه شيئاً: فالإشراك بالله عز وجل؛ قال الله عز وجل:{ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، وأمّا الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً قط: فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، وأمّا الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً: فمظالم العباد بينهم؛ القصاص لا محالة"[١].

* وعن أبي ذر- رضي الله عنه- أيضاً-؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أتاني آتٍ من ربي فأخبرني- أو قال-: بشرني أنه مَنْ مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً: دخل الجنة؛ قلت: وإن زنى، وإن سرق؛ قال: وإن زنى، وإن سرق"[٢].

ودليل الخطاب في قوله عليه السلام:" لا يشرك بالله شيئاً: دخل الجنة": ظاهرٌ بجلاء.

* وهو ما جاء التصريح به من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ مات يشرك بالله شيئاً: دخل النار؛ وقلت أنا: مَنْ مات لا يشرك بالله شيئاً: دخل الجنة"[٣].

* وعن جابر- رضي الله عنه-؛ قال:" أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ؛ فقال: يا رسول الله؛ ما الموجبتان؟؛ فقال: مَنْ مات لا يشرك بالله شيئاً: دخل الجنة، ومَنْ مات يُشرك بالله شيئاً: دخل النار"[٤].

---

(١)" المستدرك٤/٦١٩"،" أحمد٦/٢٤٠"،" شعب الإيمان٦/٥٢"؛ والحديث: صحّحه الحاكم، وردّه الذهبي بقوله:(صدقة ضعّفوه، وابن بابنوس فيه جهالة)، وقال الهيثمي:(وفيه صدقة بن موسى؛ وقد ضعّفه الجمهور؛ وقال مسلم بن إبراهيم: حدثنا صدقة بن موسى وكان صدوقاً؛ وبقية رجاله ثقات)" المجمع١٠/٣٤٨"؛ وللحديث شواهد بأسانيد ضعيفة عن أنس، وسلمان، وأبي هريرة؛ انظر:" مجمع الزوائد١٠/٣٤٨"؛ وقد صَحّحه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند:"١/٥٢٠" بينما ضَعّفه الشيخ الألباني في:" ضعيف الجامع؛ ح: ٣٠٢٢"؛ والله أعلى وأعلم.

(٢)" البخاري١/٤١٧":(كتاب: الجنائز، باب: في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله؛ ح: ١١٨٠)،" مسلم١/٩٤":(كتاب: الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار؛ ح: ٩٤).

(٣)" البخاري١/٤١٧":(كتاب: الجنائز، باب: في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله؛ ح: ١١٨١)،" مسلم١/٩٤":(كتاب: الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار؛ ح: ٩٢).

(٤)" مسلم١/٩٤":(كتاب: الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار؛ ح: ٩٣).

* وعن معاذ- رضي الله عنه-؛ قال:" بينا أنا رديف النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال: يا معاذ!؛ قلت: لبيك وسعديك ثم قال مثله ثلاثاً؛ هل تدري ما حق الله على العباد؟؛ قلت: لا؛ قال: حقّ الله على العباد أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئاً ثم سار ساعة؛ فقال: يا معاذ!؛ قلتُ: لبيك وسعديك؛ قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟؛ أن لا يعذبهم"(١).

وهذه النصوص- وغيرها- ظاهره في التحذير من الشرك، وذمّه، وبيان قبحه، وشدة خطره، وعظيم شؤمه على العباد في الدنيا، والآخرة.

قال الحافظ الحكمي- رحمه الله-:(فالشرك: أعظم ذنب عُصي الله به؛ ولهذا أخبرنا سبحانه أنه لا يغفره، وأنه لا أضل من فاعله، وأنه مخلد في النار أبداً؛ لا نصير له، ولاحميم، ولا شفيع يطاع؛ وأنه لو قام لله تعالى قيام السارية ليلاً، ونهاراً ثم أشرك مع الله تعالى غيره لحظة من اللحظات ومات على ذلك: فقد حبط عمله كله بتلك اللحظة التي أشرك فيها)(٢).

المطلب الثالث: الدعوة إلى اجتناب الشرك في قصص الأنبياء والمرسلين.

وهذا العنوان ممّا قد يستغرب إذ قصص الأنبياء، والمرسلين لا تدور- أساساً- إلا على الدعوة إلى تحقيق التوحيد، واجتناب الشرك؛(والمقصود: أن الشرك أعظمُ ما نهى اللهُ عنه كما أن التوحيد أعظم ما أمر الله به؛ ولهذا كان أول دعوة الرسل كلهم إلى توحيد الله عز وجل، ونفي الشرك؛ فلم يَأمروا بشيء قبل التوحيد، ولم يَنهوا عن شيء قبل الشرك)(٣).

ففي قصص نوح عليه السلام في سورة هود:

* قال تعالى:{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ}؛[هود: ٢٥- ٢٦].

---

(١)" البخاري٣/١٠٤٩":(كتاب: الجهاد والسير، باب: ما يذكر من شؤم الفرس؛ ح: ٢٧٠١)،" مسلم١/٥٨، ٥٩":(كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة؛ ح: ٣٠).

(٢)" معارج القبول٢/٤٧٦".

(٣)" معارج القبول٢/٤٨١".

وقد سبق معنا أنه كان بين نوح، وآدم عشرة قرون؛ كلهم على شريعة من الحق[1] ؛ ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام؛ وقد روى البخاري من حديث ابن جُرَيْج عن عطاء عن ابن عبَّاس عند تفسير قوله تعالى: { وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً} ؛ قال:" هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح؛ فلمّا هلكوا أوحى الشّيْطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم؛ ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتَنَسّخ العلم: عُبِدتْ"[2].

فبعث الله عبده، ورسوله نوحاً عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه.

* وقد قال تعالى في سورة المؤمنون: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ}؛[المؤمنون: ٢٣].

* وقال تعالى في سورة نوح: { قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا}؛[نوح: ٢١- ٢٤].

ـــــ وقد ذكر اللهُ تعالى أن نوحاً عليه السلام ظلّ داعياً إلى التوحيد، وناهياً عن الشرك ألف سنة إلا خمسين عاماً؛ وهو يجتهد في قومه بأنواع الدعوة في الليل والنهار، والسر والإجهار، بالترغيب تارة، والترهيب أخرى.

* قال تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا}؛[نوح: ١- ٩].

---

(١) انظر:" المستدرك٢/٤٨٠، ٢٨٨، ٥٩٦"،" ابن حبان١٤/٦٩"،" الأوسط١/١٢٨"،" تفسير ابن أبي حاتم٨/٢٦٩٦"،" تاريخ دمشق٧/٤٤٥: ٤٤٦"،" تفسير الطبري٢/٣٣٤".

(٢)" البخاري٤/١٨٧٣".

* وقال تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ }؛[العنكبوت: ١٤].

وفي قصص هود عليه السلام:

وهود عليه السلام أرسله الله إلى قبيلة يُقال لهم عاد؛ وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف؛ وهم أول مَنْ عبد الأصنام بعد الطوفان؛ فأرسل الله فيهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى اجتناب الشرك، وإفراد الله وحده بالعبادة، والإخلاص له.

* قال تعالى في سورة هود: { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ... }؛- إلى قوله تعالى-: { قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ }؛[هود: ٥٠- ٥٥].

* وقال تعالى- أيضاً- في سورة الأعراف: { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ... }؛- إلى قوله-: { قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ }؛[الأعراف: ٦٥- ٧١].

* وقال تعالى- كذلك- في سورة الأحقاف: { وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ }؛ [الأحقاف: ٢١- ٢٣].

وهذه الآيات تُصّور حال قوم هود عليه السلام كما تُصّور حقيقة دعوته عليه السلام إليهم.

قال الزمخشري- رحمه الله-:({ أجئتنا لنعبد الله وحده }؛ أنكروا، واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك

دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه حباً لما نشأوا عليه، وألفاً لما صادفوا آباءهم يتدينون به)[1].

وقد قال ابن جزي- رحمه الله-:({ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده}؛ استبعدوا توحيد الله مع اعترافهم بربوبيته)[2].

وقوله:{ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان}؛(المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار؛ وذلك لأنهم كانوا يسمون الأصنام بالآلهة مع أن معنى الإلهية فيها معدوم)[3].

وقوله تعالى حكايةً عن عاد:{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا}؛ دال على أن صرفهم عن الشرك إلى التوحيد؛ هو الغاية من رسالة هود، ودعوته عليه السلام إليهم.

قال الشوكاني- رحمه الله-:({ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا}؛ أي: لتصرفنا عن عبادتها؛ وقيل: لتزيلنا؛ وقيل: لتمنعنا؛ والمعنى متقارب)[4].

وبالجملة؛ فالقرآن يعلمنا بأن هوداً عليه السلام دعا قومه لاجتناب الشرك بترك عبادة الآلهة الباطلة بالدليل القاطع، وأن العبادة حق خالص للمنعم سبحانه وحده ممّا يُوجب على العباد أن يعبدوا الله، وأن لا يُشركوا به شيئاً[5].

فهذه الآيات المتتابعات دالة على أن دعوة هود عليه السلام كانت قائمة في الأساس على صرف القوم عن الشرك المتمثل في عبادة الآلهة، والأنداد بُغيةَ إفراد الله تعالى وحده بالعبادة.

وفي قصص صالح عليه السلام:

* قال تعالى في سورة هود:{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي

---

(١)" الكشاف٢/١١١"؛ ونحوه في:" تفسير أبي السعود٣/٢٣٩".

(٢)" التسهيل لعلوم التنزيل٢/٣٦: ٣٧".

(٣)" التفسير الكبير١٤/١٣٠".

(٤)" فتح القدير٥/٢٢".

(٥) انظر:" التفسير الكبير١٤/١٢٩".

وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ}؛[هود: ٦١- ٦٣].

ـــ وقبيلة ثمود؛ هم أصحاب الحِجر، وكانوا بعد عاد على عبادة الأصنام مثلهم؛ فدعاهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخلعوا الأصنام والانداد، ولا يشركوا بالله شيئاً؛ والآيات ظاهرة في دعوة صالح عليه السلام قومَه لإفراد الله وحده بالعبادة، واجتناب الشرك عامة.

قال الآلوسي- رحمه الله- في قوله هنا:{ قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا}؛ قال:({ قبل هذا}؛ أي: الذي باشرته من الدعوة إلى التوحيد، وترك عبادة الآلهة؛ فلما سمعنا منك ما سمعناه انقطع عنك رجاؤنا)(١).

وقوله تعالى حكاية عن ثمود:{ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}؛ نصٌّ في نهي صالح عليه السلام قومَه عن الشرك بالله، واتخاذ الأنداد من دونه.

قال الطبري- رحمه الله-:({ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا}؛ يقولون: أتنهانا أن نعبد الآلهة التي كانت آباؤنا تعبد،{ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب}؛ يعنون أنهم لا يعلمون صحة ما يدعوهم إليه من توحيد الله، وأن الألوهية لا تكون إلا له خالصاً)(٢).

وفي قصص إبراهيم عليه السلام:

والأمر هنا هو الغاية في الظهور، والبيان؛ والآيات تترى في التحذير من الشرك، والدعوة لاجتنابه؛ منها:

* قوله تعالى:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ...؛ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}؛[الأنعام: ٧٤- ٨١].

* وقال تعالى:{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا

(١)" روح المعاني١٢/٨٩"؛ ونحوه في:" تفسير أبي السعود٤/٢٢١".

(٢)" تفسير الطبري١٢/٦٣".

يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا}؛[مريم: ٤١- ٤٤].

* وقال تعالى:{ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ...؛ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}؛[الأنبياء: ٥١- ٦٧].

* وقال تعالى:{ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}؛[العنكبوت: ١٦- ١٧].

والآيات تفيض دعوةً إلى تحقيق التوحيد بإفراد الله تعالى وحده بالعبادة مع اجتناب الشرك، والبعد عنه، والحذر منه.

* وقد قال الله تعالى:{ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}؛[الأنعام: ٨٣- ٨٨].

قلت: وبالإضافة لما سبق كله؛ فقد قال الله تعالى لعبده، ونبيه، ورسوله، وخليله محمد صلى الله عليه وسلم: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}؛[الزمر: ٦٥].

قال السعدي- رحمه الله-:(وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال؛ ولهذا قال:{ ولقد أوحي إليك إلى الذين من قبلك}؛ من جميع الأنبياء:{ لئن أشركت ليحبطن عملك}؛ هذا مفرد مضاف يعم كل عمل؛ ففي نبوة جميع الأنبياء أن الشرك محبط لجميع الأعمال كما قال تعالى في سورة الأنعام لما عدّ كثيراً من أنبيائه، ورسله؛ قال عنهم:{ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون}؛

وقوله:{ ولتكونن من الخاسرين}؛ دينك، وآخرتك؛ فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب، والنكال)[1].

ـــــ فإذا كان الشرك محبطاً لجميع أعمال الأنبياء، والمرسلين حال وقوعه منهم- فرضاً[2]-؛ وهم صفوة خلق الله، وأقومهم بدينه علماً، وعملاً؛ فكيف بمن دونهم إذاً؟!؛ فأيّ أمر بعد ذلك أعظم من الشرك يجب على العباد الحذر منه؟!؛ وأيّ أمر بعد ذلك أعظم من الشرك يجب على الدعاة التحذير منه؟!.

---

(١)" تفسير السعدي/٧٢٩".

(٢) انظر:" زاد المسير٧/١٩٥".

الأصل السابع

البراء من الشرك وأهله من حقيقة الإسلام

ـــــــ وإنما كان البراء من الشرك، وأهله من حقيقة دين الإسلام لأن إقامة التوحيد، واجتناب الشرك عامة؛ كلاهما لا يتحقق إلا بالبراء من الشرك، وأهله؛ وبيان ذلك من وجوه:

الوجه الأول: البراء من الشرك، وأهله من حقيقة التوحيد.

فكلمة التوحيد- لا إله إلا الله-؛ تلك الكلمة التي جاء بها، ودعا إليها جميع الأنبياء، والمرسلين كما تتضمن إفرادَ الله وحده بالعبادة، واجتناب الشرك عامة؛ فإنها تتضمن- كذلك- البراء من الشرك، وأهله.

قال الإمام الصنعاني- رحمه الله-:(الأصل الثاني: أن رسل الله، وأنبياءه من أولهم إلى آخرهم بُعثوا لدعاء العباد إلى توحيد الله بتوحيد العبادة؛ وكل رسول أول ما يقرع به أسماع قومه قولُه:﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره﴾،﴿ أن لا تعبدوا إلا الله﴾،﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾؛ وهذا الذي تضمنه قول:" لا إله إلا الله"؛ فإنما دعتْ الرسلُ أممَها إلى قول هذه الكلمة، واعتقاد معناها؛ لا مجرد قولها باللسان؛ ومعناها: هو إفراد الله بالإلهية، والعبادة، **والنفي لما يعبد من دونه، والبراءة منه**؛ وهذا الأصل لا مرية فيما تضمنه، ولا شك فيه، وفي أنه لا يتم إيمان أحدٍ حتى يعلمه، ويحققه)[1].

وكلمة التوحيد- لا إله إلا الله-؛ مركبة- كما يظهر- من ركنين[2]:

الركن الأول: النفي- لا إله-؛ و(لفظ" إله"؛ في كلمة الشهادة نكرة في سياق النفي: فيعم بلا شك)[3]؛ كما أن (النكرة المنفية كما في كلمة الشهادة: أقوى في الدلالة على العموم من النكرة في سياق النفي)[4]؛ وهذا كله لبيان

---

(١)" تطهير الاعتقاد/٥: ٦".

(٢) انظر:" تفسير القرطبي٢/١٩١"،" الفتاوى لابن تيمية١٤/١٧١: ١٧٢"،" شرح العقيدة الطحاوية١/١١١"،" حاشية ابن عابدين٨/١٤٤"،" أضواء البيان٢/٣٧٤، ٣/١٨، ٧/١٠٢"،" معنى لا إله إلا الله للزركشي/٨٨: ٨٩"،" روح المعاني٣/٦، ٢٦/٥٩".

(٣)" معنى لا إله إلا الله للزركشي/٩١".

(٤)" معنى لا إله إلا الله للزركشي/٩٩".

أن النفي هنا؛ هو نفي عام، مطلق.

و" الإله"؛ هو: المألوه؛ أي: المعبود؛ وهو اسم جنس؛ فيطلق على المعبود بحق أو بباطل[1]؛ فـ" لا إله"؛ تنفي الألوهية في كل معانيها، وصورها نفياً عاماً، مطلقاً عن كل ما سوى الله تعالى من مطاع أو متّبَع أيّاً كان.

الركن الثاني: الإثبات– إلا الله–؛ فإذا كان قول:" لا إله": ينفي الألوهية في كل معانيها، وصورها نفياً عاماً، مطلقاً عن كل ما سوى الله تعالى من مطاع أو متّبَع أيّاً كان؛ فإن قول:" إلا الله"؛ يثبت الألوهية في كل معانيها، وصورها لله سبحانه وتعالى وحده؛ وهذا هو التوحيد.

قال الإمام الزركشي– رحمه الله–:(قول:" لا إله إلا الله"؛ أي: على هذه الصيغة الخاصة، الجامعة بين النفي، والإثبات ليدل على حصر الإلهية لله تعالى؛ فإن الجمع بين النفي، والإثبات أبلغ صيغ الحصر)[2].

(وأهل المعاني يقولون: إنما بدأ بالنفي لأن النفي تفريغٌ القلب؛ فإذا كان خالياً كان أقرب إلى ارتسام التوحيد فيه، وإشراق نور الله تعالى عليه؛ وفي كلام بعضهم أنه إنما بدأ بالنفي لتطهير القلب من الأغيار، وصقل جوهره لاستجلاء الأنوار، وحصول الأسرار، وقوة الأبصار)[3].

قال ابن القيم– رحمه الله–:(فكان في الإتيان بالنفي في صدر هذه الكلمة من تقرير الإثبات، وتحقيق معنى الإلهية، وتجريد التوحيد الذي يُقصد بنفي الإلهية عن كل ما ادّعيت فيه سوى الإله الحق تبارك وتعالى؛ فتجريد هذا التوحيد من العقد، واللسان بتصور إثبات الإلهية لغير الله كما قاله أعداؤه المشركون، ونفيه، وإبطاله من القلب، واللسان من تمام التوحيد، وكماله، وتقريره، وظهور أعلامه، ووضوح شواهده، وصدق براهينه)[4].

ـــــ فَتبيّن أن التوحيد يتضمن: إثباتاً، ونفياً؛ وأنه لا يتحقق إلا بهذين الركنين معاً؛ فالاقتصار فيه على النفي: تعطيل، والاقتصار فيه على الإثبات: لا يمنع المشاركة؛ فلابد في التوحيد من النفي، والإثبات معاً؛ نفي الحكم عمّا سوى الموحَّد، وإثباته له وحده.

---

(١) انظر:" تفسير الطبري١/٥٤: ٥٥"،" التفسير الكبير١/١٣٣"،" تفسير ابن كثير١/٢٠"،" روح المعاني٨٤/٢٣"،" تفسير البحر المحيط ١/١٢٤"،" المفردات في غريب القرآن١/٢١"،" التبيان في إعراب القرآن١/٤"،" لسان العرب١٣/٤٦٧: ٤٧٠"،" تاج العروس٣٦/٣٢٠: ٣٢٤"؛ وغيرها.

(٢)" معنى لا إله إلا الله/٨٣".

(٣)" معنى لا إله إلا الله للزركشي/٨٢".

(٤)" طريق الهجرتين/٢٣٦".

قال ابن القيم- رحمه الله-:(وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع: نفي الإلهية عمّا سوى الله، وإثباتها له بوصف الاختصاص؛ فدلالتها على الإثبات أعظم من دلالة قولنا: الله إله؛ ولا يستريب أحدٌ في هذا البتة)[1].

ــــــ ومن نصوص الأئمة في بيان كون البراء من الشرك، وأهله من حقيقة التوحيد:

قولُ أبي المظفر الأسفراييني- رحمه الله-:(وقال:{ فاعلم أنه لا إله إلا الله}؛ فأمره بالمعرفة، ومغادرة كل دين يخالفه في حقيقته، وأمره أن يخبر عن نفسه بصفة معرفته الجامعة لوصفي النفي، والإثبات، ومعرفة ما يجب معرفته، ومجانبة ما تجب مجانبته؛ فقال:{ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين}، وأمر سبحانه الكافة بكلمة الإيمان:" لا إله إلا الله"؛ جمع فيها بين النفي، والإثبات؛ **وقدّم النفي على الإثبات ليعلم أن الإثبات لا يحصل إلا بصيانته عن كل ما يتضمن مخالفته)**[2].

وقال ابن القيم- رحمه الله-:(والجامع لهذا كله تحقيقُ شهادة:" أن لا إله إلا الله"؛ علماً، ومعرفةً، وعملاً، وحالاً، وقصداً؛ وحقيقة هذا النفي، والإثبات الذي تضمنته هذه الشهادة؛ هو: الفناء، والبقاء؛ فيفنى عن تأليه ما سواه: علماً، وإقراراً، وتعبّداً؛ ويبقى بتألهيه وحده؛ فهذا الفناء، وهذا البقاء: هو حقيقة التوحيد الذي عليه المرسلون، وأنزلت به الكتب، وخلقت لأجله الخليقة، وشرعت له الشرائع، وقام عليه سوق الجنة، وأسس عليه الخلق، والأمر؛ **وحقيقته- أيضاً-: البراء، والولاء؛ البراء من عبادة غير الله، والولاء لله...)**[3].

وقال الشنقيطي- رحمه الله-:(التوحيد: هو تحقيق معنى:" لا إله إلا الله"؛ وهي متركبة من نفي، وإثبات؛ فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت، ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام...)[4].

---

(١)" بدائع الفوائد٣/٥٦٥".

(٢)" التبصير في الدين/١٤".

(٣)" مدارج السالكين١/١٦٧: ١٦٨".

(٤)" أضواء البيان٣/١٨"؛ ونحوه في:" نفس المرجع١/٧".

وقد قال ابن تيمية- رحمه الله-:(إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا الله، ولا يبغض إلا لله، ولا يُوالي إلا لله، ولا يُعادي إلا لله، وأن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله)(1).

الوجه الثاني: دلالة النصوص على وجوب البراء من الشرك، وأهله لتحقيق الإيمان، والتوحيد.

ــــــ وقد أمر الله تعالى عباده بأن يكونوا حنفاء، مجانبين للمشركين في غير موضع من كتابه؛ فمن ذلك:

* قولُه تعالى:{ حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}؛[الحج: ٣١].

* وقال تعالى:{ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}؛[البينة: ٥].

* وقال تعالى- أيضاً-:{ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}؛[البقرة: ١٣٥].

* وقال تعالى:{ قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}؛[آل عمران: ٩٥].

* وقال تعالى:{ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}؛[الأنعام: ١٦١].

* وقال تعالى:{ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}؛[النحل: ١٢٣].

* وقال تعالى-كذلك-:{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}؛[يونس: ١٠٤- ١٠٥].

ــــ ففي هذه الآيات كلها- وغيرها- يأمر الله تعالى عباده بأن يكونوا حنفاء، مجانبين للشرك، وأهله، متبعين في ذلك ملة إبراهيم عليه السلام.

---

(١)" الاحتجاج بالقدر/٦٢".

وأصل(الحنف: الميل؛ ومنه: رجل حنفاء، ورجل أحنف؛ وهو الذي تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بإصابعها؛ قالت أم الأحنف:

والله لولا حنف برجله   ما كان في فتيانكم مثله)[1].

قال ابن عُزير السجستاني- رحمه الله-:(والحنيف اليوم: المسلم؛ وقيل: إنما سمّي إبراهيم عليه السلام حنيفاً لأنه حَنِف عمّا كان يعبد أبوه، وقومه من آلهة إلى عبادة الله جل وعز؛ أي: عدل عن ذلك، ومال؛ وأصل الحنف: ميل في إبهامي القدمين كل واحدة على صاحبتها)[2].

وعليه؛ فـ(الحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق)[3].

قال ابن عطية- رحمه الله-:(والحنيف في الدين: الذي مال عن الأديان المكروهة إلى الحق)[4].

وقال ابن كثير- رحمه الله-:(والحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً؛ أي: تاركاً له عن بصيرة، ومقبلاً على الحق بكليته؛ لا يصدّه عنه صاد، ولا يرده عنه راد)[5].

* وقد قال الله تعالى:{ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[المجادلة: ٢٢].

(فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله، ورسوله؛ فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر؛ فاذا وجد الإيمان: انتفى ضدّه؛ وهو موالاة أعداء الله؛ فإذا كان الرجل يُوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب)[6].

---

(١)" تفسير القرطبي٢/١٤٠"،" العين٣/٢٤٨"؛ ونحوه في:" القاموس المحيط/١٠٣٦"،" فتح القدير١/١٤٦"،" أضواء البيان٢/٤٦٥"؛ وانظر للفائدة:" لسان العرب٩/٥٧"،" تاج العروس٢٣/١٦٨: ١٧٠"،" مفتاح دار السعادة١/١٧٤".

(٢)" غريب القرآن/١٩٩".

(٣)" الكشاف١/٢٢٠"،" تفسير النسفي١/٧٢".

(٤)" المحرر الوجيز١/٢١٤"؛ ونحوه في:" نفس المرجع١/٤٥١"،" تفسير البغوي١/٣١٣"،" تفسير الثعالبي١/١١٢".

(٥)" تفسير ابن كثير١/٥٦٠"؛ ونحوه في:" نفس المرجع٢/٥٩١".

(٦)" الفتاوى لابن تيمية٧/١٧".

* وقال تعالى– أيضاً–:{ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}؛[المائدة: ٨٠– ٨١].

وهاهنا(ذَكَرَ جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط: وجد المشروط بحرف:" لو"؛ التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط؛ فقال:{ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء}؛ فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء، ويضاده؛ ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب)[١].

* وقال تعالى:{ لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ}؛[آل عمران: ٢٨].

(أخرج ابن جبير، وابن أبي حاتم عن السدي؛"{ ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء}؛ فقد برىء اللهُ منه")[٢].

ففي هذه الآية(تَبَرَّأ سبحانه ممّن اتخذ الكفار أولياء من دون المؤمنين)[٣].

* وقد قال تعالى:{ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}؛[الكافرون: ١– ٦].

و(هذه السورة: سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه؛ فقوله:{ قل يا أيها الكافرون}؛ يشمل كل كافر على وجه الأرض...؛ فقال:{ لا أعبد ما تعبدون}؛ يعني: من الأصنام، والأنداد؛ {ولا أنتم عابدون ما أعبد}؛ وهو الله وحده، لاشريك له...؛{ ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد}؛ أي: ولا أعبد عبادتكم؛ أي: لا أسلكها، ولا أقتدي بها؛ وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه، ويرضاه؛ ولهذا قال: {ولا أنتم عابدون ما أعبد}؛ أي: لا تقتدون بأوامر الله، وشرعه في عبادته بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم كما قال:{ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى}؛ فتبرأ منهم في جميع ما هم

---

(١)" الفتاوى لابن تيمية٧/١٧".

(٢)" الدر المنثور٢/١٧٦".

(٣)" صبح الأعشى١٣/٣٧٦".

فيه)[1].

* وقد جاء من حديث نوفل الأشجعي- رضي الله عنه-:" وكان النبي صلى الله عليه وسلم دفع إليه ابنة أمِّ سلمة؛ وقال: إنما أنت ظئري؛ قال: فقدمتُ عليه؛ فقال: ما فعلت الجويرية أو الجارية؟؛ قلت: عند أمها؛ قال: فمجيء ما جئت؟!؛ قال: جئت أن تعلمني شيئاً أقوله عند منامي!؛ قال: اقرأ:{ قل يا أيها الكافرون}؛ فإنها براءة من الشرك"[2].

فتأمّل قوله عليه السلام في وصف سورة:{ قل يا أيها الكافرون}:" فإنها براءة من الشرك"؛(أي: متضمنة للبراءة من الشرك)[3].

وإنما كانت هذه السورة براءة من الشرك؛ لأن قوله تعالى:{ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون}- إلى آخرها-؛(تقتضي براءته من دينهم، وأن ديني لي وأنتم بريئون منه، ودينكم لكم وأنا بريء منه كما قال تعالى في الآية الأخرى:{ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون}؛ فقوله:{ لي عملي ولكم عملكم}؛ هو نظير قوله:{ لكم دينكم ولي دين}؛ وقرنه بمقتضاه، وموجبه؛ فقال:{ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون}؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السورة: هي براءة من الشرك)[4].

الوجه الثالث: البراء من الشرك، وأهله في قَصَص الأنبياء، والمرسلين.

ــــــ وكما تكرّر معنا؛ فإن الأنبياء، والمرسلين جميعاً جاءوا بدعوة التوحيد، وإفراد الله وحده بالعبادة؛ وهو ما يعني أنهم جميعاً: دعوا إلى البراء من الشرك، وأهله؛ وهو ظاهرٌ، جليّ في قَصَصِهم؛ ومن ذلك:

في قصص نوح عليه السلام:

* قال تعالى:{ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ

(١)" تفسير ابن كثير٤/٥٦١".

(٢)" المستدرك١/٧٥٤، ٢/٥٨٧"،" ابن حبان٣/٧٠، ١٢/٣٣٥، ٣٤٥"،" النسائي الكبرى٦/٥٢٤"،" أبو داود٤/٣١٣"،" الترمذي ٥/٤٧٤"،" الدارمي٢/٥٥١"،" أحمد٥/٤٥٦"،" مصنف ابن أبي شيبة٥/٣٢٣، ٦/٣٨، ٣٩"؛ وهو حديث صحيح، له طرق؛ وقد صحّحه الحاكم، وابن حبان، وابن حجر؛ وانظر في الكلام عليه:" موسوعة فضائل سور وآيات القرآن الكريم٢/٣٤٢: ٣٤٩".

(٣)" فيض القدير١/٢٥١".

(٤)" الصفدية٢/٣١٥".

الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ}[هود: ٤٢- ٤٧].

وهذا المشهد العجيب بين الأب، وابنه جاء ليُعلي من شأن رابطة الدين، ويلغي بجانبها كل رابطة أخرى من الروابط، والأواصر التي تعارف عليها الناس؛ فإذا كانت روابط الدم، وأَصِرَّةُ* البنوة- بكل خصوصيتها في النفس البشرية- ملغاة، مهدرة متى خالفت رابطة الدين، وانحلّت عنها؛ فأي رابطة أخرى بعد تحل محلها أو تقدّم عليها؟!.

وفي قوله تعالى:{ وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقالَ: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ}؛ نجد نوحاً عليه السلام ينطلق في دعاء ربه بقلب، ولسان الأب الشفيق، الخائف، الوجل على ابنه: ربّ إن ابني من أهلي، وقد وعدتني بنجاة أهلي، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين؛ قالها يستنجز ربه وعده في نجاة أهله!.

(وجاءه الرد بالحقيقة التي غفل عنها؛ فالأهل- عند اللّه، وفي دينه، وميزانه- ليسوا قرابة الدم، إنما هم قرابة العقيدة؛ وهذا الولد لم يكن مؤمناً؛ فليس- إذن- من أهله؛ وهو النبي المؤمن...؛ جاءه الرد هكذا في قوة، وتقرير، وتوكيد، وفيما يشبه التقريع، والتأنيب، والتهديد:{ قالَ: يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ، فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ})(١).

قال ابن جزي- رحمه الله-:({ قال يا نوح إنه ليس من أهلك}؛ أي: ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم لأنه كافر...؛{ إنه عمل غير صالح}؛ فيه ثلاث تأويلات على قراءة الجمهور؛ أحدها: أن يكون الضمير في إنه لسؤال نوح نجاة ابنه، والثاني: أن يكون الضمير لابن نوح وحذف المضاف من الكلام؛ تقديره: إنه ذو عمل غير صالح، والثالث: أن يكون الضمير لابن نوح؛ و" عَمَلٌ": مصدر وصفَ به مبالغةً كقولك:" رجل صوم"؛ وقرأ الكسائي:" عَمَلَ" بفعل ماض،" غير صالح" بالنصب، والضمير على هذا لابن نوح بلا إشكال.

---

*(يُقال: بينه وبين فلان أصرة رحم)؛" تفسير الثعلبي٢/٣٠٨"،" شفاء العليل/١٩٠"؛ وانظر هذا الحرف في:" تاج العروس١٢/٣٠٤".

(١)" في ظلال القرآن٤/١٨٧٩".

{ فلا تسألن ما ليس لك به علم}؛ أي: لا تطلب مني أمراً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب حتى تقف على كُنهه)[1].

وقد قال الراغب الأصبهاني- رحمه الله- في معجمه:(أهل: أهل الرجل مَنْ يجمعه وإياهم نسبٌ أو دين أو ما يجري مجراهما من صناعة، وبيت، وبلد؛ فأهل الرجل في الأصل: مَنْ يجمعه وإياهم مسكنٌ واحد ثم تُجُوِّز به؛ فقيل: أهل بيت الرجل لمن يجمعه وإياهم نسبٌ، وتُعورف في أسرة النبي عليه الصلاة والسلام مطلقاً إذا قيل:" أهل البيت" لقوله عز وجل:{ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت}؛ وعُبِّر بأهل الرجل عن امرأته، وأهل الإسلام الذين يجمعهم؛ ولما كانت الشريعة حكمتْ برفع حكم النسب في كثير من الأحكام بين المسلم، والكافر؛ قال تعالى:{ إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح}، وقال تعالى:{ وأهلك إلا من سبق عليه القول})[2].

(ولهذا قال مَنْ قال من العلماء: إنه ليس من أهلك الذين وعدت بإنجائهم؛ وهو وإن كان من الأهل نسباً: فليس هو منهم ديناً؛ والكفر قطع الموالاة بين المؤمنين، والكافرين كما نقول إن أبا لهب ليس من آل محمد، ولا من أهل بيته وإنْ كان من أقاربه؛ فلا يدخل في قولنا: اللهم صلى على محمد، وعلى آل محمد)[3].

قال الزمخشري- رحمه الله-:({ إنه عمل غير صالح}؛ تعليل لانتفاء كونه من أهله؛ وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وأن نسيبَك في دينك، ومعتقدك من الأباعد في النسب وإنْ كان حبشياً وكنت قرشياً: لصيقُك، وخصيصُك؛ ومَنْ لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحماً: فهو أبعد بعيد منك؛ وجُعلتْ ذاته عملاً غير صالح مبالغةً في ذمّه كقولها*: فإنما هي إقبال وإدبار)[4].

وقال الرازي- رحمه الله-:(المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب؛ فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه؛ ولكن لما انتفت قرابة الدين: لا جرم نفاها الله تعالى بأبلغ

---

(١)" التسهيل لعلوم التنزيل٢/١٠٦".

(٢)" مفردات الراغب/٢٩".

(٣)" منهاج السنة النبوية٤/٣٤٩"؛ وانظر في تضعيف القول بأنه لم يكن ابنه:" التفسير الكبير١٧/١٨٤: ١٨٥"،" المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز٣/١٧٧"،" تفسير القرطبي٩/٤٦: ٤٧"،" تفسير ابن كثير٢/٤٤٩"،" أضواء البيان٨/٣١٥: ٣١٦"، وغيرها؛ وقد قال الإمام ابن كثير عن قول الجمهور بأنه ابنه:(هذا هو الحق الذي لا محيد عنه...؛ وهو الصواب الذي لا شك فيه).

* يعني: الخنساء؛ وانظر:" الأغاني١٥/٧٨"،" البيان والتبيين/٤٨٦"،" خزانة الأدب١/٤١١".

(٤)" الكشاف٢/٣٧٧: ٣٧٨".

الألفاظ؛ وهو قوله:{ إنه ليس من أهلك})[1].

وفي قصص هود عليه السلام:

* قال تعالى:{ قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}؛[هود: ٥٣- ٥٧].

فقول هود عليه السلام:{ إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه}؛(يقول: إني بريء من جميع الأنداد، والأصنام)[2]، و(من إشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطاناً)[3].

قال الإمام ابن كثير- رحمه الله-:(وهذا تحدٍّ منه لهم، وتبرٍّ من آلهتهم، وتنقص منه لها، وبيان أنها لا تنفع شيئاً، ولا تضر، وأنها جماد؛ حكمُها: حكمُه، وفعلُها: فعلُه؛ فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر، وتنفع، وتضر؛ فها أنا بريءٌ منها، لاعنٌ لها، {فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون}؛ أنتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه، وتقدروا عليه، ولا تؤخروني ساعة واحدة، ولا طرفة عين؛ فإني لا أبالي بكم، ولا أفكر فيكم، ولا أنظر إليكم؛ {إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم}؛ أي: أنا متوكلٌ على الله، ومتأيّد به، وواثق بجنابه الذي لا يضيع مَنْ لاذ به، واستند إليه؛ فلست أبالي مخلوقاً سواه، ولست أتوكل إلا عليه، ولا أعبد إلا إياه)[4].

ومن لطائف البيان في الآيات: أن هوداً(صرّح- عليه الصلاة والسلام- بالحق، وصدع به حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدّرة بأن، وأَشهدَ الله على ذلك، وأمرهم بأن يسمعوا ذلك، ويشهدوا به استهانةً بهم ثم أمرهم بالاجتماع، والاحتشاد مع آلهتم جميعاً دون بعض منها حسبما يشعر به قولهم:{ بعض آلهتنا}؛ والتعاون

---

(١)" التفسير الكبير١٨/٣"؛ ونحوه في:" تفسير أبي السعود٤/٢١٢"،" تفسير القرطبي٩/٤٦".

(٢)" تفسير ابن كثير٢/٤٥٠".

(٣)" فتح القدير٢/٥٠٥".

(٤)" البداية والنهاية١/١٢٤".

في إيصال الكيد إليه عليه الصلاة والسلام، ونهاهم عن الإنظار، والإمهال في ذلك؛ فقال:{ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون}؛ أي: إن صح ما لوحتم به من كون آلهتكم ممّا يقدر على إضرار مَنْ ينال منها، ويصدّ عن عبادتها ولو بطريق ضمني: فإني بريء منها؛ فكونوا أنتم معها جميعاً، وباشروا كيدي ثم لا تمهلوني، ولا تسامحوني في ذلك؛ فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا، وعلى البراءة كليهما)[1].

ومن لطائف البيان في الآيات- كذلك-: ما ذكره ابن الأثير- رحمه الله- بقوله:(القسم الثاني: في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر؛ وهذا القسم كالذي قبله في أنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلباً للتوسع في أساليب الكلام فقط بل لأمر وراء ذلك؛ وإنما يقصد إليه تعظيماً لحال مَنْ أجري عليه الفعل المستقبل، وتفخيماً لأمره؛ وبالضدّ من ذلك فيمن أُجري عليه فعل الأمر.

فممّا جاء منه قولُه تعالى:{ يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون}؛ فإنه إنما قال:{ أشهد الله}، {واشهدوا}؛ ولم يقل:" وأُشهدكم"؛ ليكون موازناً له، وبمعناه لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك: صحيحٌ، ثابت؛ وأمّا إشهادهم: فما هو إلا تهاونٌ بهم، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم؛ ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجِيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لِمَنْ يبس الثرى بينه وبينه: اِشْهد علي أني لا أحبك تهكماً به، واستهانةً بحاله)[2].

ـــــ والحق؛ أن هذا المقام من هود عليه السلام من المقامات التي تحار فيها الألباب بل هو لمن أعطاه حقّه من التدبّر من آيات النبوة، وأعلام الرسالة[3].

قال أبو السعود- رحمه الله-:(وهذا من أعظم المعجزات؛ فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلاً مفرداً بين الجمّ الغفير، والجمع الكثير من عُتاة عاد الغلاظ، الشداد وقد خاطبهم بما خاطبهم، وحقّرهم وآلهتهم، وهيّجهم على مباشرة مبادي المضادة والمضارة، وحثهم على التصدي لأسباب المعازة والمعارة؛ فلم يقدروا على مباشرة شيء مما

(١)" تفسير أبي السعود٤/٢١٨".

(٢)" المثل السائر٢/١١: ١٢"؛ ونحوه تماماً في:" البرهان في علوم القرآن٣/٣٣٦"،" تفسير النسفي٢/١٦٠".

(٣) نصّ عليه في:" تفسير القرطبي٩/٥٢"،" معاني القرآن٣/٣٥٨".

كلفوه، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً؛ كيف لا وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع، واعتصم بحبل متين)[1].

وقد قال ابن أبي العز الحنفي- رحمه الله-:(فهذا من أعظم الآيات أن رجلاً واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب غير جزع، ولا فزع، ولا خوار بل هو واثقٌ بما قاله، جازم به؛ فأَشهد الله- أولاً- على براءته من دينهم وما هم عليه إشهاد واثق به، معتمدٍ عليه، معلم لقومه أنه وليه، وناصره، وغير مسلط لهم عليه ثم أَشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة أنه بريء من دينهم، وآلهتهم التي يوالون عليها، ويعادون عليها، ويبذلون دماءهم، وأموالهم في نصرتها لها ثم أكّد ذلك عليهم بالاستهانة لهم، واحتقارهم، وازدرائهم)[2].

وفي قَصَص إبراهيم عليه السلام:

* قال الله تعالى:{ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}؛ [الأنعام: ٧٥: ٧٩].

وهنا؛ نجد إبراهيم عليه السلام يُظهر التّبرّؤ من الشرك، وأهله حيث يقول لقومه:{ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}؛(فتبرأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد)[3].

قال الإمام الطبري- رحمه الله-:(وهذا خبرٌ من الله تعالى؛ ذَكَره عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه لما تبين له الحق، وعرفه: شهد شهادة الحق، وأظهر خلاف قومه- أهل الباطل، وأهل الشرك بالله-، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قِيل الحق، والثبات عليه مع خلاف جميع قومه لقوله، وإنكارهم إيّاه عليه، وقال لهم:{ يا قوم إني بريء مما تشركون}؛ مع الله- الذي خلقني، وخلقكم- في عبادته من آلهتكم، وأصنامكم...؛{ وما أنا من

(١)" تفسير أبي السعود٤/٢١٨".

(٢)" العقيدة الطحاوية/٩٤"؛ ونحوه في:" مدارج السالكين٣/٤٦٥"،" تفسير السعدي/٣٨٣".

(٣)" تفسير السعدي/٢٦٢".

المشركين}؛ يقول: ولستُ منكم؛ أي: لست ممن يدين دينكم، ويتبع ملتكم أيها المشركون)[1].

* وقال تعالى- أيضاً-:{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ...}؛ الآيات؛ [الشعراء: ٦٩- ٧٨].

وهاهنا- أيضاً- نجد إبراهيم عليه السلام حريصاً على إظهار التّبرّؤ من الشرك، وأهله؛ فيواجه قومه بقوله: {أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ}؛(ومعنى الكلام: أفرأيتم كل معبود لكم، ولآبائكم: فإني منه بريء؛ لا أعبده إلا رب العالمين)[2].

قال الإمام ابن كثير- رحمه الله-:(هذا إخبارٌ من الله تعالى عن عبده، ورسوله، وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء؛ أَمَرَ اللهُ تعالى رسولَه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتلوه على أمته ليقتدوا في الإخلاص، والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتّبري من الشرك، وأهله)[3].

* وتأمّل قوله تعالى:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}؛[الزخرف: ٢٦- ٢٨].

(يقول تعالى مخبراً عن عبده، ورسوله، وخليله؛ إمام الحنفاء، ووالد مَنْ بُعثَ بعده من الأنبياء؛ الذي تنتسب إليه قريش في نسبها، ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه، وقومه في عبادتهم الأوثان؛ فقال:{ إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين})[4].

فهو إصرار من الخليل عليه السلام على إظهار البراءة من الشرك، وأهله بأوضح عبارة، وآكدها؛ وقوله هنا: {بَرَاء}؛(مصدر نُعتَ به مبالغةً)[5] لتأكيد البراءة.

---

(١)" تفسير الطبري٧/٢٥١: ٢٥٢".

(٢)" تفسير الطبري١٩/٨٤".

(٣)" تفسير ابن كثير٣/٣٣٨".

(٤)" تفسير ابن كثير٤/١٢٧".

(٥)" تفسير أبي السعود٨/٤٤"؛ ونحوه في:" تفسير البيضاوي٥/١٤٣"،" تفسير السمرقندي٣/٢٤٣"،" تفسير الطبري٢٥/٦٢".

وقول الخليل هنا:{ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي}؛ هو معنى:" لا إله إلا الله" مطابقة؛(لأن:" لا إله إلا الله": نفي، وإثبات؛ فمعنى النفي منها: هو البراءة من جميع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات؛ وهذا المعنى جاء موضَّحاً في قوله:{ إنني برآء مما تعبدون}؛ ومعنى الإثبات منها: هو إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله؛ وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله:{ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين})[1].

قال الرازي- رحمه الله-:({ وجعلها}؛ أي: وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التي تكلم بها؛ وهي قوله:{ إننى براء مما تعبدون}؛ جارياً مجرى:" لا إله"، وقوله:{ إلا الذى فطرني}؛ جارياً مجرى قوله:" إلا الله"؛ فكان مجموع قوله:{ إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى}؛ جارياً مجرى قوله:" لا إله إلا الله")[2].

وقال ابن كثير- رحمه الله-:({ وجعلها كلمة باقية في عقبه}؛ أي: هذه الكلمة؛ وهي عبادة الله وحده؛ لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان؛ وهي:" لا إله إلا الله"؛ أي: جعلها دائمة في ذريته؛ يَقتدي به فيها مَنْ هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام)[3].

(فهذه الكلمة: هي كلمة الإخلاص لله؛ وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب يس:{ ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون})[4].

* وقال تعالى- أيضاً-:{ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}؛[التوبة: ١١٣- ١١٤].

والشاهد هنا؛ قوله:{ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}؛ فهو نصٌّ في تبرؤ إبراهيم عليه السلام من أقرب الناس إليه، وألصقهم به.

---

(١)" أضواء البيان٧/١٠٢"؛ وانظر:" تفسير الطبري٢٥/٦٣"،" تفسير الثعالبي٤/١٢٥".

(٢)" التفسير الكبير٢٧/١٧٩".

(٣)" تفسير ابن كثير٤/١٢٧"؛ ونحوه في:" تفسير البيضاوي٥/١٤٤".

(٤)" التحفة العراقية/٦١".

قال الرازي- رحمه الله-:(اعلم أنه تعالى لما بيّن من أول هذه السورة إلى هذا الموضع وجوبَ إظهار البراءة عن الكفار، والمنافقين من جميع الوجوه: بَيَّن في هذه الآية أنه تجب البراءة عن أمواتهم وإن كانوا في غاية القرب من الإنسان كالأب، والأم* كما أوجبت البراءة عن أحيائهم؛ والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات، والمنع من مواصلتهم بسبب من الأسباب)(١).

* وقد قال تعالى- كذلك-:{ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}؛[المجادلة: ٤].

والخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم، والمسلمين معه؛ و(الأسوة: هو الذي يُقتدى به؛ فأمر الله المسلمين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام، وبالذين معه في عداوة الكفار، والتّبرئ منهم؛ ومعنى:{ والذين معه}: مَنْ آمن به من الناس، وقيل: الأنبياء الذين كانوا في عصره، وقريباً من عصره...؛{ براء}: جمع بريء،{ كفرنا بكم}؛ أي: كذبناكم في أقوالكم، ويحتمل أن يكون عبارة عن إفراط البغض، والمقاطعة لهم؛{ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك}؛ هذا استثناء من قوله:{ أسوة حسنة}؛ فالمعنى: اقتدوا بهم في عداوتهم للكفار، ولا تقتدوا بهم في هذا لأن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له؛ فلمّا تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وقيل: الاستثناء من التبري، والقطيعة؛ والمعنى: تبرأ إبراهيم والذين معه من الكفار إلا أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له)(٢).

* وقد قال تعالى مخاطباً، وآمراً رسوله محمداً صلوات ربي وسلامه عليه:{ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}؛[الأنعام: ١٩].

وهذه الآية تصدح آمرةً سيدَ ولد آدم صلى الله عليه وسلم بتحقيق التوحيد مع البراءة من الشرك، وأهله.

---

* والبراء من الوالدين حال كفرهما لا ينفي مصاحبتهما في أمر الدنيا بالمعروف؛ قال تعالى:{ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}؛[لقمان: ١٥]؛ وانظر في اجتماع البراء من الوالدين الكافرين، ومصاحبتهما في الدنيا بالمعروف:" الفصل في الملل٤/٩٤".

(١)" التفسير الكبير١٦/١٦٥".

(٢)" التسهيل لابن جزي٤/١١٣".

قال الإمام الطبري- رحمه الله-:(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المشركين الجاحدين نبوتك، العادلين بالله رباً غيره: أئنكم أيها المشركون لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؛ يقول: تشهدون أن معه معبودات غيره من الأوثان، والأصنام...؛ ثم قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد: لا أشهد بما تشهدون أن مع الله آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره؛{ إنما هو إله واحد}؛ يقول: إنما هو معبود واحد، لا شريك له فيما يستوجب على خلقه من العبادة؛{ وإنني بريء مما تشركون}؛ يقول: قل: وإنني بريء من كل شريك تدعونه لله، وتضيفونه إلى شركته، وتعبدونه معه؛ لا أعبد سوى الله شيئاً، ولا أدعو غيره إلهاً)(1).

قلت: وبمجموع ما سبق معنا يتقرّر أن البراء من الشرك، وأهله من أصول الإسلام، ومن معاقده العظيمة، ومعاقله الكبار التي يقوم عليها بناءُ هذا الدين بل لا يستقيم بناء الدين إلا به؛ والله وحده الموفق.

(١)" تفسير الطبري٧/١٦٣: ١٦٤".

الأصل الثامن

الكفر بالطاغوت ركن التوحيد

وتقرير هذا الأصل من خلال التالي:

أولاً: المراد بـ" الطاغوت".

(والطاغوت: هو كلُّ ما عُبِدَ، وأُطِيع من دون الله تعالى، وكذلك؛ قال مالك- رحمه الله-:" الطاغوت": كلُّ ما عُبِدَ من دون الله تعالى)(١).

و(قال الليث، وأبو عبيدة، والكسائي، وجماهير أهل اللغة:" الطاغوت":كُلُّ ما عُبِدَ من دون الله تعالى)(٢).

ـــــ وعليه؛ فـ" الطاغوت": جنسٌ عام تحته أفراد؛ فَكُلُّ مَنْ صُرِفتْ إليه عبادةٌ ما ممّا لا يُصرف إلا لله سبحانه وتعالى؛ فهو: طاغوت؛ تجاوز حدّه، وقدره(٣).

قال ابن العربي- رحمه الله-:(قال مالك:" الطاغوت": كلُّ ما عُبد من دون الله من صنم أو كاهن أو ساحر أو كيفما تصرف الشرك فيه)(٤).

وقال الطبري- رحمه الله-:(والصواب من القول عندي في الطاغوت؛ أنه: كل ذي طغيان على الله: فَعُبد من دونه؛ إمّا بقهر منه لمن عَبَدَه، وإمّا بطاعة ممّن عبده له: إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء)(٥).

وقال ابن تيمية- رحمه الله-:(والطاغوت: فعلوت من الطغيان...؛ والطغيان: مجاوزة الحد؛ وهو: الظلم، والبغي؛ فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارهاً لذلك: طاغوت...؛ والمطاع فى معصية الله، والمطاع فى اتباع غير الهدى، ودين الحق- سواء كان مقبولاً خبرُه المخالف لكتاب الله أو مطاعاً أمرُه المخالف لأمر الله-: هو طاغوت؛ ولهذا سمّى مَنْ

---

(١)" المحرر الوجيز٢/٦٦".

(٢)" شرح مسلم للنووي٣/١٨".

(٣) انظر:" لسان العرب١٥/٩"،" التسهيل لعلوم التنزيل١/٩٠"،" المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز١/٣٤٤، ٣٤٥، ٢/٢١٢"،" تفسير الثعالبي١/٢٠٣"،" روح المعاني ٣/١٣"، وغيرها.

(٤)" أحكام القرآن١/٥٧٨".

(٥)" تفسير الطبري٣/١٩".

تُحوكم إليه من حاكم بغير كتاب الله: طاغوت، وسمّى اللهُ فرعون، وعاداً طغاة)[١].

وقد قال الإمام ابن القيم- رحمه الله-:(و" الطاغوت": كلُّ ما تجاوز به العبدُ حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم: مَنْ يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله؛ فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها، وتأملت أحوال الناس معها: رأيت أكثرهم عدلوا من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله، وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته، ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت، ومتابعته)[٢].

قلت: ويجمع كل ما سبق في المراد بـ" الطاغوت": القول بأنه(اسم جنس لِما عُبِدَ من دون الله، ولِمَن يُضل الناسَ من الشياطين، وبني آدم)[٣].

وقد(قال الجوهري:" الطاغوت": الكاهن، والشيطان، وكل رأس في الضلال)[٤].

ثانياً: وجوب الكفر بـ" الطاغوت" لتحقيق الإسلام.

فإذا كان البراء من الشرك، وأهله من أصول الإسلام، ومن معاقله الكبار التي يقوم عليها بناء هذا الدين كما سبق معنا في الأصل السابع: فإن الكفر بالطاغوت؛ هو: أساس البراء من الشرك، وأهله.

ومن ثم؛ كان الكفر بالطاغوت: من حقيقة دين الإسلام التي لا يقوم إلا بها.

* قال تعالى:{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}؛[النحل: ٣٦].

قال القرطبي- رحمه الله-:(قوله تعالى:{ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله}؛ أي: بأن اعبدوا الله، ووَحِّدوه؛{ واجتنبوا الطاغوت}؛ أي: اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان، والكاهن، والصنم، وكل مَنْ دعا إلى الضلال)[٥].

---

(١)" الفتاوى٢٨/٢٠٠: ٢٠١".

(٢)" إعلام الموقعين١/٥٠".

(٣)" التسهيل لعلوم التنزيل١/٩٠"؛ ونحوه في:" لسان العرب١٥/٩"،" المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز١/٣٤٤، ٣٤٥، ٢/٢١٢"،" تفسير الثعالبي١/٢٠٣"، وغيرها.

(٤)" عمدة القاري٢٣/١٣٣"،" تفسير القرطبي٣/٢٨٢ ".

(٥)" الكشاف١/٣٣١".

(وهذه الآية؛ هي معنى:" لا إله إلا الله"؛ فإنها تضمنت النفي، والإثبات كما تضمنته:" لا إله إلا الله"؛ ففي قوله:{ اعبدوا الله}: الإثبات، وفي قوله:{ اجتنبوا الطاغوت}: النفي؛ فدلت الآية على أنه لابد في الإسلام من النفي، والإثبات؛ فيثبت العبادة لله وحده، وينفي عبادة ما سواه؛ وهو التوحيد الذي تضمنته سورة:{ قل يا أيها الكافرون}؛ وهو معنى قوله:{ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم})[1].

والآية صريحة في أن الأمر باجتناب الطاغوت لم يتخلف- قط- عن الأمر بعبادة الله على ألسن الرُّسل؛ وهي ناطقة بأن اجتناب الطاغوت: هو ممّا جاء به كلُّ رسول من رسل الله جميعاً، وممّا أمر اللهُ به الأممَ جميعاً أيضاً؛ فهو- إذاً- أصلٌ أصيل، وركنٌ ركين.

وقد قال ابن كثير- رحمه الله-:(ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة؛ أي: في كل قرن، وطائفة من الناس رسولاً؛ وكلهم يدعون إلى عبادة الله، وينهون عن عبادة ما سواه:{ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}؛ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أُرسل إليهم نوح؛ وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي طبقت دعوتُه الإنسَ، والجن في المشارق، والمغارب)[2].

* وقال تعالى- كذلك-:{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا}؛[النساء: ٦٠].

وفي هذه الآية:(يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا بما جاء به الرسول، وبما قبله؛ ومع هذا:{ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت}؛ وهو كل من حكم بغير شرع الله؛ فهو طاغوت؛ والحال: أنهم {قد أمروا أن يكفروا به}؛ فكيف يجتمع هذا الإيمان؟!؛ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله، وتحكيمه في كل أمر من الأمور؛ فمَنْ زعم أنه مؤمن واختار حكمَ الطاغوت على حكم الله: فهو كاذب في ذلك؛ وهذا من إضلال

---

(١)" تيسير العزيز الحميد/٣٤".

(٢)" تفسير ابن كثير٢/٥٦٩"؛ ونحوه في:" تفسير السعدي/٤٤٠".

الشيطان إيّاهم؛ ولهذا قال:{ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً}؛ عن الحق)[١].

وقوله تعالى هنا:{ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ}: نصٌّ صريح في وجوب الكفر بالطاغوت أيّاً كان!.

وقد(جعل التحاكم إلى الطاغوت يكون ايماناً به؛ ولا شك أن الايمان بالطاغوت: كفرٌ بالله كما أن الكفر بالطاغوت إيمانٌ بالله)[٢].

قال أبو السعود- رحمه الله- في كلام عالٍ نفيس:(فالمتبادر من قوله تعالى:{ وقد أمروا أن يكفروا به}: كونهم مأمورين بالكفر به في الكتابين؛ وما ذاك إلا الشيطان، وأولياؤه المشهورون بولايته كالكهنة، ونظائرهم لا من عداهم ممّنْ لم يشتهر بذلك؛ وقُرئ:" أن يكفروا بها": على أن الطاغوت جمع كما في قوله تعالى:{ أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم}؛ والجملة حال من ضمير:{ يريدون}: مفيدة لتأكيد التعجيب، وتشديد الاستقباح كالوصف السابق؛ وقوله عز وجل:{ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً}: عطفٌ على:{ يريدون}: داخلٌ في حكم التعجيب؛ فإنّ اتباعهم لمن يريد إضلالهم، وإعراضهم عمّن يريد هدايتهم: أعجبُ من كل عجيب؛{ وضلالاً}: إمّا مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد كما في قوله تعالى:{ وأنبتها نباتاً حسناً}؛ أي: إضلالاً بعيداً؛ وإمّا مصدر مؤكد لفعله المدلول عليه بالفعل المذكور؛ أي: فيُضلوا ضلالاً؛ وأيّاً ما كان: فوصفه بالبعد الذى هو نعت موصوفه للمبالغة)[٣].

وقد قال الشنقيطي- رحمه الله- في الآية:(فالكفر بالطاغوت الذي صرّح الله بأنه أمرهم به في هذه الآية: شرطٌ في الإيمان كما بيّنه تعالى في قوله:{ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى}؛ فيُفهم منه أن مَنْ لم يكفر بالطاغوت: لم يتمسك بالعروة الوثقى؛ ومَنْ لم يستمسك بها: فهو مترد مع الهالكين)[٤].

قلت: قد قال الله تعالى:{ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}؛[البقرة: ٢٦٥].

---

(١)" تفسير السعدي/١٨٤".

(٢)" التفسير الكبير١٠/١٢٤".

(٣)" تفسير أبي السعود٢/١٩٥"؛ ونحوه تماماً في:" روح المعاني٥/٦٨".

(٤)" أضواء البيان٧/٥٠".

فجعل اللهُ تعالى للاستمساك بالعروة الوثقى شرطين معاً: الكفرَ بالطاغوت، والإيمانَ بالله؛ وهما ركنا: النفي، والإثبات في كلمة التوحيد:" لا إله إلا الله"؛ كما تقدّم.

(قال مجاهد:" العروة الوثقى"؛ يعني: الإيمان؛ وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير، والضحاك: يعني: لا إله إلا الله؛ وعن أنس بن مالك:" العروة الوثقى": القرآن؛ وعن سالم بن أبي الجعد؛ قال: هو الحب في الله، والبغض في الله؛ وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافي بينها)(١).

قال الإمام الطبري- رحمه الله-:(فتأويل الكلام إذاً: فمَنْ يجحد ربوبية كل معبود من دون الله؛ فَيَكفر به، ويؤمن بالله؛ يقول: ويصدق بالله أنه إلهه، وربه، ومعبوده؛{ فقد استمسك بالعروة الوثقى}؛ يقول: فقد تمسّك بأوثق ما يُتمسّك به من طلب الخلاص لنفسه من عذاب الله، وعقابه)(٢).

وقال الإمام ابن كثير- رحمه الله-:(وقوله:{ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم}؛ أي: مَنْ خلع الأنداد، والأوثان، وما يدعو إليه الشيطانُ من عبادة كل ما يُعبد من دون الله، ووحَّد الله؛ فعبده وحده، وشهد أن لا إله إلا هو:{ فقد استمسك بالعروة الوثقى}؛ أي: فقد ثبت في أمره، واستقام على الطريقة المثلى، والصراط المستقيم)(٣).

ـــــــ وفي الآية(تمثيل للمعلوم بالنظر، والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنه ينظر اليه بعينه؛ فَيُحْكِم اعتقادَه، والتيقن به)(٤).

وكما هو ظاهر؛ فإنّ الجملة هنا:{ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى}: جملةٌ شرطية.

قال الشنقيطي- رحمه الله-:(ومفهوم الشرط: أن مَنْ لم يكفر بالطاغوت: لم يستمسك بالعروة الوثقى؛ وهو كذلك؛ ومَنْ لم يستمسك بالعروة الوثقى: فهو بمعزل عن الإيمان لأن الإيمان بالله: هو العروة الوثقى؛ والإيمان

---

(١)" تفسير ابن كثير ١/٣١٢".

(٢)" تفسير الطبري٣/١٩".

(٣)" تفسير ابن كثير ١/٣١٢".

(٤)" الكشاف ١/٣٣١".

بالطاغوت: يستحيل اجتماعه مع الإيمان بالله لأن الكفر بالطاغوت شرطٌ في الإيمان بالله أو ركنٌ منه كما هو صريح قوله:{ فمن يكفر بالطاغوت...}؛ الآية)[١].

ـــــ وقد ثبت من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال:" بُني الإسلام على خمس؛ على أن: يُعبد الله ويُكفر بما دونه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان"[٢].

وقوله عليه السلام هنا:" ويُكفر بما دونه"؛ أي: يُكفر بكل ما يُعبد من دون الله؛ أي: يُكفر بالطاغوت؛ فالحديث: نصٌّ صحيحٌ، صريحٌ في أن الكفر بالطاغوت من مباني الإسلام، ومعاقله التي يقوم عليها.

وقوله عليه السلام في هذا الحديث:" بُني الإسلام على خمس؛ على أن: يُعبد الله ويُكفر بما دونه": هو عين قوله تعالى:{ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى}.

* وقد ثبت- كذلك- من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه؛ قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" مَنْ قال لا إله إلا الله، وَكَفَرَ بما يُعبد من دون الله: حَرُمَ مالُه، ودمُه؛ وحسابُه على الله"[٣].

* وفي رواية لهذا الحديث عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه؛ قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ وَحَّدَ اللهَ، وَكَفَرَ بما يُعبد من دون الله: حَرُمَ مالُه، ودمُه؛ وحسابُه على الله"[٤].

قال العيني- رحمه الله-:(وفيه دلالةٌ صريحة على أن الكافر إذا قال: لا إله إلا الله: لا يُحكم بإسلامه، ولا يصح إسلامه حتى يَكفر بما يُعبد من دون الله؛ وهذا هو المراد من التبرؤ عن سائر الأديان سوى دين الإِسلام)[٥].

قلتُ: وقوله عليه السلام في الحديث:" وَكَفَرَ بما يُعبد من دون الله"؛ أي: كَفَرَ بالطاغوت؛ فهذا الحديث- كذلك-: نصٌّ صحيحٌ، صريحٌ في أن الكفر بالطاغوت من حقيقة الإسلام، وشعائره العظام.

وقوله عليه السلام في الحديث:" مَنْ قال لا إله إلا الله، وَكَفَرَ بما يُعبد من دون الله: حَرُمَ مالُه، ودمُه؛ وحسابُه على الله"، وفي الرواية الثانية:" مَنْ وَحَّدَ اللهَ، وَكَفَرَ بما يُعبد من دون الله: حَرُمَ مالُه، ودمُه؛ وحسابُه على الله": هو عين قوله تعالى:{ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى}.

---

(١)" أضواء البيان ١/٢٤٥".

(٢)" مسلم ١/٤٥".

(٣)" مسلم ١/٥٣".

(٤)" مسلم ١/٥٣".

(٥)" نخب الأفكار ١٢/١٩٤".

ـــــــــ وبهذا؛ انتظما الكتابُ والسنة، واطَّردا في اشتراط الكفر بالطاغوت لتحقيق الإسلام الحقيقي، وصحة الإيمان المنجي؛ والله وَليُّ الإنعام، والإحسان؛ لا إله إلا هو.

الأصل التاسع

التزامُ الشرع

حقيقةُ الإسلام الجامعة

فمن البديهي أن الأنبياء، والمرسلين لم يُبعثوا إلا لِيُطاعوا، ولم تُنزّل عليهم الشرائع إلا لتمتثل، والمحور الأساس الذي كان يدور عليه قَصَصُ الأنبياء، والمرسلين مع أقوامهم؛ هو: التزام أمر الله: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً.

ومن هنا: كان التزام شرائع الإسلام؛ هو: الوعاء الجامع لرسالة الأنبياء، والمرسلين؛ أي أنه: حقيقة دين الإسلام الجامعة كما أنه حقيقة العبادة التي خُلق لها الإنسانُ بمعناها الصحيح.

وقد دلّت جملة من الوجوه على ذلك؛ ومن هذه الوجوه:

الوجه الأول: التزام شرائع الإسلام من تحقيق التوحيد.

والتوحيد؛ هو:(إفراد الله سبحانه بما يختص به من الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات)[١].

والتزام شرائع الدين من مقتضيات الربوبية، ومن لوازم الأسماء والصفات كما أنه هو حقيقة الألوهية:

ـــــ أمّا أن التزام شرائع الدين من مقتضيات الربوبية: فإن(الرب؛ هو: السيد، والمالك، والمنعم، والمربي، والمصلح؛ والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها)[٢].

وقد عُرّفَ توحيد الربوبية؛ بأنه:(انفراد الرب بالخلق، والرزق، وأنواع التدبير)[٣].

وقيل:(هو توحيد الله تعالى بأفعاله، والإقرار بأنه خالق كل شيء، ومليكه، وإليه يرجع الأمر كله في التصريف، والتدبير)[٤].

---

(١)" القول المفيد١/١١".

(٢)" بدائع الفوائد٤/٩٤٣".

(٣)" التعريفات الاعتقادية/١٢٨".

(٤)" التعريفات الاعتقادية/١٣٢".

ــــــــ ومَنْ نظر إلى الربوبية من هذا الوجه: شهد حقيقتها؛ ورأى الأشياء كلها مخلوقة لله، مدبرة بمشيئته، مقهورة بحكمته؛ فما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس؛ فلا معقّب لحكمه، ولا رادّ لأمره؛ ورأى أنه سبحانه ربُّ كل شيء ومليكه؛ وكل ما سواه مربوب له، مدبر، مقهور، لا يملك لنفسه ضراً، ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نشوراً بل هو عبد فقير إلى الله تعالى من جميع الجهات؛ والله غني عنه كما أنه الغني عن جميع المخلوقات[1].

ــ ومَنْ شهد حقيقة الربوبية فإنه كما يُسلّم بأن الخلق، والرزق من أفعال الله، ومن أنواع تدبيره لخلقه فإنه يُسلّم- كذلك- بأن" الحكم"، و" التشريع" في خلقه، وبين عباده من مقتضيات قيوميته عليهم، وقيامه بأمرهم، وتدبيره لهم، ورعايته لمصالحهم مع كونها من خاصة أفعاله كذلك.

* وقد قال الله تعالى:{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}؛ [الأعراف: ٥٤].

فبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى بعضاً من دلائل ربوبيته؛ قال عز وجل:{ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}؛(أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات- علويها، وسفليها؛ أعيانها، وأوصافها، وأفعالها-، والأمر المتضمن للشرائع، والنبوات؛ فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية؛ وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء)[2].

وفي الآية؛ ساوى سبحانه بين كون الخلق له، وبين كون الأمر له؛(فكما لا يخلق غيرُه: لا يأمر غيرُه)[3].

قال سلطان العلماء؛ الإمام العز بن عبد السلام- رحمه الله-:(وتفرد الإله بالطاعة لاختصاصه بنعم الانشاء، والإبقاء، والتغذية، والإصلاح- الديني، والدنيوى-؛ فما من خير إلا هو جالبه، وما من ضير إلا هو سالبه؛ وليس بعض العباد بأن يكون مطاعاً بأولى من البعض إذ ليس لأحد منهم إنعام بشيء ممّا ذكرته في حق الإله؛ **وكذلك لا**

(١) انظر:" الفتاوى لابن تيمية٨/٥٩".

(٢)" تفسير السعدي/٢٩١".

(٣)" الفتاوى٣/٣٧١".

حكم إلا له)[1].

* وتأمّل قوله تعالى:{ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }؛[التوبة: ٣١].

قال الرازي– رحمه الله–:(الأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم بل المراد أنهم: أطاعوهم في أوامرهم، ونواهيهم؛ نُقل أن عدي بن حاتم كان نصرانياً؛ فانتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ سورة براءة؛ فوصل إلى هذه الآية؛ قال: فقلتُ: لسنا نعبدهم؛ فقال: أليس يحرمون ما أحل الله: فتحرمونه؟!؛ ويحلون ما حرم الله: فتستحلونه؟!؛ فقلتُ: بلى؛ قال: فتلك عبادتهم؛ وقال الربيع: قلتُ لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟!؛ فقال: إنهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار، والرهبان فكانوا يأخذون بأقوالهم، وما كانوا يقبلون حكمَ كتاب الله تعالى)[2].

ـــ فظهر أن(التشريع، وجميع الأحكام– شرعية كانت أو كونية قدرية– من خصائص الربوبية كما دلّت عليه الآيات المذكورة)[3].

قال ابن حزم– رحمه الله–:(فلمّا كان اليهود، والنصارى يحرمون ما حرم أحبارهم ورهبانهم، ويحلون ما أحلوا؛ **كانت هذه ربوبية صحيحة، وعبادة صحيحة قد دانوا بها؛ وسمّى الله تعالى هذا العمل اتخاذَ أرباباً من دون الله، وعبادة؛ وهذا هو الشرك بلا خلاف)**[4].

وقد قال الشيخ محمد رشيد رضا– رحمه الله– في بيان معنى الشرك في الربوبية:(هو إسناد الخلق، والتدبير إلى غير الله تعالى معه أو أن تؤخذ أحكام الدين في عبادة الله تعالى، والتحليل، والتحريم عن غيره؛ أي: غير كتابه، ووحيه الذي بلغه عنه رسلُه)[5].

ـــ وهذا كله يبين أن التزام شرائع الدين من مقتضيات توحيد الربوبية، ولوازمه كونه تنفيذاً لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته، وكمال ملكه، وتصرفه.

---

(١)" قواعد الأحكام٢/١٣٤: ١٣٥".

(٢)" التفسير الكبير١٦/٣٠: ٣١".

(٣)" أضواء البيان٧/٥٣".

(٤)" الفصل في الملل والنحل٣/١٢٥".

(٥)" تفسير المنار٢/٥٥"؛ وانظر:" نفس المرجع٣/٣٢٦".

ـــــ أمّا أن التزام شرائع الدين من لوازم توحيد الأسماء والصفات؛ فإن توحيد الأسماء والصفات؛ هو(اعتقاد انفراد الرب جلّ جلاله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، والجلال، والجمال التي لا يشاركه فيها مشاركٌ بوجه من الوجوه؛ وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من جميع الأسماء، والصفات، ومعانيها، وأحكامها الواردة في الكتاب، والسنة على الوجه اللائق بعظمته، وجلاله)(١).

* وقد قال الله تعالى:{ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}؛[الأنعام: ٥٧].

* وقال الله تعالى:{ ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}؛[الأنعام: ٦٢].

* وقال الله تعالى:{ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}؛[يوسف: ٤٠].

* وقال الله تعالى:{ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}؛[يوسف: ٦٧].

* وقد قال الله تعالى:{ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}؛[القصص: ٧٠].

* وقال الله تعالى- كذلك-:{ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}؛[القصص: ٨٨].

ـــــ ففي هذه الآيات كلها- وغيرها- بيّن الله سبحانه وتعالى بأوضح بيان، وأجلاه أن من صفاته، ومن أفعاله سبحانه وتعالى التي اختصّ بها نفسه، وتفرّد بها دون العالمين: حقَ التشريع بوضع الشرائع من الأحكام، والأوامر، والنواهي للخلق كافة.

* وقد قال الله تعالى:{ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}؛[الكهف: ٢٦].

(والمعنى: ولا يُشرك اللهُ جل وعلا أحداً في حكمه بل الحكم له وحده جل وعلا؛ لا حكم لغيره ألبتة؛ فالحلال: ما أحلّه تعالى، والحرام: ما حرّمه، والدين: ما شرعه، والقضاء: ما قضاه؛ وقرأه ابن عامر من السبعة:{ ولا تُشرك}؛

(١)" التعريفات الاعتقادية/١٢٩".

بضم التاء المثناة الفوقية، وسكون الكاف بصيغة النهي؛ أي: لا تُشرك يا نبي الله أو لا تُشرك أيها المخاطب أحداً في حكم الله جل وعلا بل أخلص الحكمَ لله من شوائب شرك غيره في الحكم؛ وحكمه جل وعلا المذكور في قوله:{ ولا يُشرك فى حكمه أحداً}: شاملٌ لكل ما يقضيه جل وعلا؛ ويدخل في ذلك: التشريعُ دخولاً أولياً)(١).

* وقد جاء من حديث المقدام بن هانئ عن ابن هانئ:" أن هانئاً- رضي الله عنه- لَمّا وفد إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم مع قومه فسمعهم يُكنّون هانئاً أبا الحكم؛ فدعاه رسولُ الله صلي الله عليه وسلم؛ فقال: إن الله هو الحكم، وإليه الحكم...؛ أنت أبو شريح"(٢).

فمجرد إطلاق الاسم- الحَكَم- على غير الله مَنَعَ منه النبي صلى الله عليه وسلم؛ فـ(إن الله هو الحَكَم، وإليه الحكم؛ أي: منه يبتدأ الحكم، وإليه ينتهي الحكم؛ وفي إطلاق أبي الحكم على غيره يوهم الإشتراك في وصفه على الجملة)(٣).

قال البغوي- رحمه الله-:(الحَكَمُ: هو الحاكم الذي إذا حكم لا يُردّ حكمُه؛ وهذه الصفة لا تليق بغير الله تعالى، ومن أسمائه: الحَكَم)(٤).

وقد قال شاه ولي الله الدهلوي- رحمه الله-:(أقول: إنما نهى عن ذلك لأنه إفراط في التعظيم يتاخم الشرك)(٥).

وفي قوله عليه السلام:" إن الله هو الحكم، وإليه الحكم"؛(عَرَّف الخبر في الجملة الأولى، وأتى بضمير الفصل: فدلّ على الحصر، وإن هذا الوصف مختصٌّ به لا يتجاوز إلى غيره)(٦).

فكان من المقطوع به، المعلوم من دين جميع الأنبياء، والمرسلين بالضرورة: اختصاصُ الله سبحانه وتعالى، وتفرّده دون العالمين بحقّ التشريع بوضع الشرائع من الأحكام، والأوامر، والنواهي للخلق كافة؛ وكان من لوازم تحقيق توحيده سبحانه وتعالى بالأسماء والصفات إفرادُه سبحانه بهذا الحق: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً.

---

(١)" أضواء البيان٣/٢٥٨".

(٢)" المستدرك١/٧٤، ٧٥"،" ابن حبان٢/٢٥٧"،" النسائي٨/٢٢٦"،" أبو داود٤/٢٨٩"،" الأدب المفرد/٢٨٢"،" سنن البيهقي١٠/١٤٥"؛ والحديث صحّحه: الحاكم، وابن حبان، وقال ابن مفلح في" الفروع٣/٤١٠":(إسناده جيد).

(٣)" عون المعبود١٣/٢٠٢".

(٤)" شرح السنة١٢/٣٤٣"،" عون المعبود١٣/٢٠٢".

(٥)" حجة الله البالغة/٨٥١".

(٦)" شرح كتاب التوحيد/٥٥١".

ـــــــ هذا؛ وقد سمّى اللهُ سبحانه وتعالى نفسَه، ووصفها بجملة أخرى، جليلة، عظيمة من الأسماء، والصفات؛ فهو سبحانه:{ أحكم الحاكمين}- هود: ٤٥-، وهو سبحانه:{ خير الحاكمين}- يوسف: ٨٠-، وهو سبحانه:{العليم الحكيم}- يوسف: ٨٣-، وهو سبحانه:{ أرحم الراحمين}- يوسف: ٦٤-، وهو سبحانه:{خير الراحمين}- المؤمنون: ١١٨-، وهو سبحانه:{ يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لايقضون بشيء إن الله هو السميع البصير}- غافر: ٢٠-، وهو سبحانه:{ يقصُّ الحق وهو خير الفاصلين}- الأنعام: ٥٧-، وهو سبحانه:{عليم بذات الصدور}- الحديد: ٦-، وهو سبحانه:{ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور}- غافر: ١٩-، وهو سبحانه:{ يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ماكانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم}- المجادلة: ٧-، وهو سبحانه:{ إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا وهم لا يفرطون ثم رُدّوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين}- الأنعام: ٦٠ ـ ٦٢-، وهو سبحانه:{ إليه مرجعكم جميعاً وعدَ الله حقاً إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون}- يونس: ٤-.

وقال تعالى عن نفسه سبحانه:{ ألا يعلم من خَلَق وهو اللطيف الخبير}- الملك: ١٤-، وقال تعالى:{ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد}- ق: ١٦-، وقال تعالى:{ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}- المائدة: ٥٠-.

ـــــــ فهذه بعض أسماء، وصفات الشارع سبحانه وتعالى؛ فهل تكون شرائع دينه من الأحكام، والأوامر، والنواهي إلا أثراً من آثار أسمائه، وصفاته؟!.

وهل يمكن أن يتحقق الإيمان الحق بأسماء الله، وصفاته بغير التزام بشرائع دينه؟!.

ومن ثم؛ كان التزام شرائع الدين من لوازم توحيد الأسماء، والصفات كونه البرهان الصادق للإيمان بجملة أسماء الله، وصفاته.

ــــــ أمّا أن التزام شرائع الدين؛ هو: حقيقة توحيد الألوهية؛(فإن الإله: هو المألوه؛ والمألوه: هو الذي يستحق أن يعبد؛ وكونه يَستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع)[1].

وقال الإمام ابن رجب- رحمه الله-:(فإن الإله: هو المعبود الذي يُطاع فلا يعصى: خشيةً، وإجلالاً، ومهابةً، ومحبةً، ورجاءً، وتوكلاً، ودعاءً)[2].

ولذا؛ عُرّف توحيد الألوهية؛ بأنه(هو عبادته وحده لا شريك له، وطاعته، وطاعة رسوله، وفِعْلُ ما يحبه ويرضاه؛ وهو ما أَمَرَ به، ورسولُه أَمْرَ إيجاب أو أمر استحباب، وتَرْكُ ما نهى الله عنه، ورسوله)[3].

وقال ابن القيم- رحمه الله-:(التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، وعليه الثواب والعقاب، والشرائع كلها تفاصيله وحقوقه؛ وهو توحيد الإلهية، والعبادة؛ وهو الذي لا سعادة للنفوس إلا بالقيام به- علماً، وعملاً، وحالاً-؛ وهو أن يكون الله وحده أحب إلى العبد من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه؛ فيعبده بمعاني الحب، والخوف، والرجاء بما يحبه هو ويرضاه؛ وهو ما شرعه على لسان رسوله لا بما يريده العبد ويهواه)[4].

وظاهر من هذا كله؛ أن التزام شرائع دين الله- محبةً، وخوفاً، ورجاءً-؛ هو حقيقة توحيد الألوهية؛ والذي يُسمّى لذلك بـ" توحيد العبادة"[5].

فـ(يُقال له:" توحيدُ الإلهية"؛ فإن الإلهية وَصْفُه تعالى الذي ينبغي أن يؤمن به كلُّ بني آدم، ويوقنوا أنه الوصف الملازم له سبحانه، الدال عليها الاسم العظيم؛ وهو الله، وهو مستلزم جميع صفات الكمال؛ ويُقال له:" توحيدُ العبادة"؛ باعتبار وجوب ملازمة وصف العبودية بكل معانيها للعبد بإخلاص العبادة لله تعالى، وتحقيقها في العبد أن يكون عارفاً بربه، مخلصاً له جميع عبادته، محقّقاً ذلك بترك الشرك صغيره، وكبيره)[6].

---

(١)" دقائق التفسير٢/٣٦٤".

(٢)" جامع العلوم والحكم/٢٠٤".

(٣)" دقائق التفسير٢/٢٩٦"،" الفتاوى لابن تيمية١٠/٦٦٩".

(٤)" مدارج السالكين٣/٣٩٧: ٣٩٨".

(٥)" أضواء البيان٢/١٦٩"،" الفتاوى الكبرى٥/٢٥٠"،" حجة الله البالغة/١٢٨"،" شرح قصيدة ابن القيم٢/٢٥٨"،" تيسير العزيز الحميد/٢٧".

(٦)" القواعد الحسان/١٩٢".

وقد قال الحكيم الترمذي- رحمه الله-:(من حق الله تعالى على عباده أن يُوحدوه؛ وإذا وحدوه: فمن حقّه عليهم أن يَعبدوه بما أمرهم به، ونهاهم عنه)[1].

الوجه الثاني: التزام شرائع الإسلام؛ هو: العبادة التي خُلِقَ لها الخلقُ.

* قال الله تعالى:{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}؛[الذاريات: ٥٦: ٥٨].

* قال تعالى:{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}؛[النحل: ٣٦].

* وقال تعالى- أيضاً-:{ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}؛ [الزخرف: ٤٥].

* وقال تعالى- كذلك-:{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}؛ [الأنبياء: ٢٥].

فـ" عبادة الله"؛ هي الغاية التي خُلقَ لها الخلقُ صرفاً؛ فلم يخلقوا لغيرها؛ ولها أُنزلتْ الكتب، وبُعِثَ الأنبياء، والمرسلون.

* وقد قال تعالى:{ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى}؛[القيامة: ٣٦].

* عن ابن عباس- رضي الله عنه-؛ قال:" قوله:{ أيحسب الإنسان أن يترك سدى}؛ يقول: هملاً"[2].

* وعن قتادة- رحمه الله- في قوله:{ أن يترك سدى}؛ قال:" أن يهمل"[3].

* وعن مجاهد- رحمه الله-؛ في قوله:{ أيحسب الإنسان أن يترك سدى}؛ قال:" لا يؤمر، ولا ينهى"[4].

* وقال ابن زيد- رحمه الله-:" قوله:{ أيحسب الإنسان أن يترك سدى}؛ قال: السدى الذي لا يُفترض عليه

(١)" نوادر الأصول١/٢٢٨".

(٢)" تفسير الطبري٢٩/٢٠٠"،" الدر المنثور٨/٣٦٣".

(٣)" الدر المنثور٨/٣٦٣".

(٤)" تفسير الطبري٢٩/٢٠١"،" الدر المنثور٨/٣٦٣".

عمل، ولا يَعمل"(١).

وقد قال الإمام الكبير محمد بن إدريس الشافعي المطلبي- رحمه الله-:" فلم يختلف أهل العلم بالقرآن فيما علمت أن السدى: الذي لا يُؤمر، ولا يُنهى"(٢).

وإذا كان الخلق لم يُخلقوا إلا للعبادة، ولم يُتركوا بغير أمر، ونهي؛ فإن" العبادة"- إذاً-؛ هي: التزام شرائع الدين من الأحكام، والأوامر، والنواهي: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً.

ـــــــ وفي تعريف" العبادة"؛ لغةً:

قال ابن فارس- رحمه الله-:(عبد: العين، والباء، والدال: أصلان صحيحان كأنهما متضادان؛ والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ.

فالأول: العبد؛ وهو المملوك، والجماعة: العبيد، وثلاثة: أعبد، وهم: العباد؛ قال الخليل: إلا أن العامة اجتمعوا على تفرقة ما بين عباد الله، والعبيد المملوكين...

وأمّا: عَبَدَ، يَعَبُدُ، عِبادة؛ فلا يُقال إلا لِمَنْ يَعبد اللهَ تعالى؛ يُقال منه: عبد، يعبد، عبادة، وتَعبّد، يتعبد، تعبداً.

فالمتعبد: المتفرد بالعبادة، واستعبدت فلاناً: اتخذته عبداً.

وأمّا عبد في معنى خدم مولاه؛ فلا يقال: عبده، ولا يقال: يعبد مولاه.

وتَعبّد فلان فلاناً إذا صيّره كالعبد له وإن كان حراً...؛ ويقال: أَعْبَد فلان فلاناً؛ أي: جعله عبداً؛ ويقال للمشركين: عَبدة الطاغوت، والأوثان، وللمسلمين: عباد يعبدون الله تعالى.

وذكر بعضهم: عابد، وعبد كخادم، وخدم...؛ ومن الباب: البعير الْمُعبّد؛ أي: المهنوء بالقطران؛ وهذا- أيضاً- يدل على ما قلناه لأن ذلك يُذله، ويخفض منه...؛ والمعبد: الذلول يوصف به البعير أيضاً.

ومن الباب: الطريق المعبد؛ وهو المسلوك المذلل...)(٣).

---

(١)" تفسير الطبري٢٩/٢٠١".

(٢)" سنن البيهقي الكبرى١٠/١١٣"،" معرفة السنن والآثار٧/٣٦٢"،" أحكام القرآن للشافعي١/٣٦، ٢/١٢٣".

(٣)" مقاييس اللغة٤/٢٠٥: ٢٠٦".

ـــــــ وفي تعريف العبادة شرعاً:

قال الإمام الطبري- رحمه الله-:(معنى العبادة: الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة)[1].

وقال أبو السعود- رحمه الله-:(والعبادة: أقصى غاية التذلل، والخضوع)[2].

وقال ابن تيمية- رحمه الله-:(وعبادة الله؛ تجمع: كمال الحب له، وكمال الذل له؛ فمَنْ كان محباً شيئاً ولم يكن ذليلاً له: لم يكن عابداً، ومَنْ كان ذليلاً له وهو مبغض: لم يكن عابداً)[3].

وقال- أيضاً-:(والعبادة: هي الغاية التي خلق الله لها العباد من جهة أمر الله، ومحبته، ورضاه؛ وهي اسمٌ يجمع: كمال الحب له ونهايته، وكمال الذل ونهايته؛ والحب الخالي عن الذل، والذل الخالي عن الحب: لا يكون عبادة؛ وإنما العبادة ما جمع كمال الأمرين؛ ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله)[4].

وقد قال ابن كثير- رحمه الله-:(والعبادة في اللغة من الذلة؛ يقال طريق معبد، وبعير معبد؛ أي: مذلل.

وفي الشرع؛ عبارة عمّا يجمع: كمال المحبة، والخضوع، والخوف)[5].

وهذا كله تعريف للعبادة باعتبار المصدر؛ أمّا تعريف العبادة- شرعاً- باعتبار الاسم:

فقال السرخسي- رحمه الله-:(العبادة: اسمٌ لعمل يباشره العبد بخلاف هوى النفس لابتغاء مرضاة الله تعالى)[6].

وقال السمعاني- رحمه الله-:(العبادة: اسمٌ لنوعِ فعلٍ اِبْتُلي الآدمي بفعله تعظيماً لله تعالى، مختاراً لطاعته على خلاف هوى نفسه)[7].

وقيل:(فعلٌ يباشره العبد بخلاف هوى النفس لابتغاء مرضاة الله تعالى)[8].

---

(١)" تفسير الطبري١/١٦٠".

(٢)" تفسير أبي السعود١/١٦".

(٣)" الفتاوى١٨/٣٢٧".

(٤)" مختصر الفتاوى المصرية/٥٨٩".

(٥)" تفسير ابن كثير١/٢٦".

(٦)" أصول السرخسي١/٢٣٦".

(٧)" قواطع الأدلة٢/٣٧٨".

(٨)"كشف الأسرار٢/٤٠٨".

وفي" التعاريف":(العبادة: فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيماً لربه، وقيل: تعظيم الله، وامتثال أوامره، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل، والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض)(١).

وفي" الكليات":(والعبادة: فعل ما يُرضي الرب)(٢).

ولا يحتاج الأمر إلى كثير جهد للقول بأن حقيقة الحدود التي ذكرها أهل العلم للعبادة بالاعتبارين- المصدري، والاسمي-؛ هي: الخضوع للأمر، والنهي؛ أي: التزام شرائع الإسلام: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً.

ـــــ وقد بَيّن الله في كتابه أن العبادة؛ هي: الطاعة:

* قال تعالى:{ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}؛[يس: ٦٠].

* وقال تعالى:{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ}؛[سبأ: ٤٠- ٤١].

* وقد أخرج الإمام محمد بن نصر المروزي- رحمه الله- بسنده:" أن عبد الملك بن مروان كتب إلى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل؛ فأجابه فيها: سألت عن الإيمان؟!؛ قال: فالإيمان هو...، وتسأل عن العبادة؟!؛ والعبادة؛ هي الطاعة؛ وذلك أنه مَنْ أطاع الله فيما أمره به، وفيما نهاه عنه: فقد أتم عبادة الله، ومَنْ أطاع الشيطان في دينه، وعمله: فقد عَبدَ الشيطانَ؛ ألم تر أن الله قال للذين فرطوا:{ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان}؛ وإنما كانت عبادتهم الشيطان أنهم أطاعوه في دينهم..."(٣).

ـــــ وقد عُرّفتْ" العبادةُ" شرعاً؛ بأنها:" الطاعة":

فقال الطبري- رحمه الله-:(والذي أراد ابن عباس- إن شاء الله- بقوله في تأويل قوله:{ اعبدوا ربكم}: وحدوه؛ أي: أفردوا الطاعة، والعبادة لربكم دون سائر خلقه)(٤).

وقال السمعاني- رحمه الله-:(قوله:{ إياك نعبد}؛ بمعنى: نحن نعبدك؛ والعبادة: هي الطاعة مع التذلل، والخضوع)(٥).

---

(١)" التعاريف/٤٩٨".

(٢)" الكليات/٦٥٠".

(٣)" تعظيم قدر الصلاة١/٣٤٦"،" الفتاوى لابن تيمية٧/٢٩٥".

(٤)" تفسير الطبري١/١٦٠".

(٥)" تفسير السمعاني١/٣٧".

وقال- كذلك-:(وقوله:{ فاسجدوا لله واعبدوا}؛ والمراد من العبادة؛ هي الطاعة)(١).

وقد قال البغوي- رحمه الله-:(والعبادة: الطاعة مع التذلل، والخضوع)(٢).

وقال الزركشي- رحمه الله-:(فائدة: العبادة؛ هي: الطاعة لله تعالى)(٣).

وقال الألوسي- رحمه الله-:(العبادة؛ هي: الطاعة، والانقياد، والخضوع)(٤).

* وتدبّر قول الله تعالى:{ يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ}؛ [المائدة: ١٠٩].

* وقوله تعالى- كذلك-:{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}؛[القصص: ٦٥].

فالله سبحانه وتعالى يَسأل الرسلَ عمّا أجابهم به العبادُ كما يَسأل العبادَ عمّا أجابوا به الرسلَ؛ وهذا مع قوله تعالى:{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}؛ يُبيّن- بأظهر ما يكون البيان- أن(العبادة: هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل)(٥).

* وفي حديث معاذ بن جبل- رضي الله عنه- المشهور؛ قال صلوات ربي وسلامه عليه:" فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً"(٦).

قال ابن حبان- رحمه الله-:(عبادة الله: إقرار باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالجوارح؛ ولهذا قال في الجواب:" فما حق العباد إذا فعلوا ذلك؟"؛ فعبّر بالفعل ولم يُعبّر بالقول)(٧).

وقال الحافظ ابن حجر- رحمه الله- في شرحه لهذا الحديث:(المراد بالعبادة: عمل الطاعات، واجتناب المعاصي)(٨).

---

(١)" تفسير السمعاني٥/٣٠٥".

(٢)" تفسير البغوي١/٤١".

(٣)" البحر المحيط في أصول الفقه١/٢٣٧".

(٤)" روح المعاني٢٦/٥٩".

(٥)" تيسير العزيز الحميد/٣٥"؛ وانظر:" الفتاوى لابن تيمية١٠/٤٩٧".

(٦)" البخارى٣/١٠٤٩، ٥/٢٢٢٤، ٢٣١٢"،" مسلم١/٥٨".

(٧)" فتح الباري١١/٣٣٩"؛ وانظر:" صحيح ابن حبان١/٤٤١".

(٨)" فتح الباري١١/٣٣٩".

ـــــ فتقرّر من جملة ما تقدّم؛ أن حقيقة" العبادة"؛ التي خَلَقَ اللهُ لها الخلقَ؛ هي: طاعة الله بامتثال ما شرعه على ألسنة رسله من الأحكام، والأوامر، والنواهي؛ الظاهرة، والباطنة.

وتأمّل قول سلطان العلماء- رحمه الله-:(كلمة التوحيد تدل على التكليف بالواجب، والحرام إذ معناها: لا معبود بحق إلا الله؛ والعبادة: هي الطاعة مع غاية الذل، والخضوع)(١).

ولهذا؛ قال ابن تيمية- رحمه الله-:(العبادة؛ هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال، والأعمال؛ الباطنة، والظاهرة)(٢).

وقد قال ابن القيم- رحمه الله- في نونيته:

وعبادة الرحمن غاية حبه　　　مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر　　　ما دار حتى قامت القطبان

ومداره بالأمر أمر رسوله　　　لا بالهوى والنفس والشيطان

فقيام دين الله بالإخلاص　　　والإحسان إنهما له أصلان

لم ينج من غضب الإله وناره　　　إلا الذي قامت به الأصلان(٣)

وقد قال الإمام الشاطبي- رحمه الله- ما نصّه:(النوع الرابع: في بيان قصد الشارع في دخول المكلف تحت أحكام الشريعة؛ ويشتمل على مسائل؛ المسألة الأولى: المقصد الشرعي من وضع الشريعة: إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبدٌ لله اضطراراً؛ والدليل على ذلك أمور:

أحدها: النصُّ الصريح الدال على أن العباد خُلقوا للتعبّد لله، والدخول تحت أمره ونهيه كقوله تعالى:{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون}، وقوله تعالى:{ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك}، وقوله:{ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون}؛ ثم شرح هذه العبادة في تفاصيل السورة كقوله تعالى:{ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن- إلى قوله-: وأولئك هم المتقون}؛ وهكذا إلى تمام ما ذكر في السورة من الأحكام،

---

(١)" الإمام في بيان أدلة الأحكام/١٦٨: ١٦٩".

(٢)" الفتاوى١٠/١٤٩".

(٣)" شرح نونية ابن القيم١/٢٥٣".

وقوله: { واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً }؛ إلى غير ذلك من الآيات الآمرة بالعبادة على الإطلاق، وبتفاصيلها على العموم؛ فذلك كله راجع إلى الرجوع إلى الله فى جميع الأحوال، والانقياد إلى أحكامه على كل حال؛ وهو معنى التعبّد لله...)[1].

الوجه الثالث: التزام شرائع الإسلام في قَصَص الأنبياء، والمرسلين.

فالأنبياء، والمرسلون لم يُبعثوا إلا لإقامة الشرع من الأوامر، والنواهي بين المكلفين؛ وهذه هي دعوتهم، ورسالتهم ليس لهم دعوة، ولا رسالة غيرها؛ ومن ذلك:

في قَصَص لوط عليه السلام:

* قال تعالى في سورة هود: { وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ }؛[هود: ٧٧- ٨٠].

* وقال تعالى في سورة الأعراف: { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ }؛[الأعراف: ٨٠- ٨١].

* وقال تعالى في سورة الشعراء: { كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ }؛[الشعراء: ١٦٠- ١٦٩].

* وقال تعالى- أيضاً-: { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ }؛ [النمل: ٥٤- ٥٦].

(١)" الموافقات٢/١٦٨: ١٦٩".

* وقال تعالى- كذلك-: { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}؛[العنكبوت: ٢٨- ٣٠].

ـــــــ ففي هذه الآيات كلها نجد الحرص من نبي الله لوط عليه السلام- بعد أن دعا إلى التوحيد، ونهى عن الشرك- على نهي قومه عمّا هم عليه من المعاصي، والمنكرات، وحملهم على الطاعة، والاستقامة على شرع الله باجتناب، وتحريم المحرمات.

(وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي ما ذَكَرَ اللهُ عنهم من الفواحش: فلم يستجيبوا له، ولم يؤمنوا به حتى ولا رجلٌ واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نهوا بل استمروا على حالهم، ولم يرتدعوا عن غيهم، وضلالهم؛ وهمّوا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا: { أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون}؛ فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضي الإخراج؛ وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد، واللجاج؛ فطهّره الله وأهله- إلا امرأته-، وأخرجهم منها أحسن إخراج)[(١)]؛ ثم أنزل اللهُ عذابَه بالقوم الفاسقين؛ فغدوا عبرةً للعالمين.

* وقوله تعالى حكايةً عن لوط عليه السلام في خطابه لقومه:{ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ...؛ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ}.

* وقوله:{ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ}.

* وقوله:{ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ...؛ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ}.

* وقوله- أيضاً-:{ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}.

---

(١)" البداية والنهاية١/١٧٨"؛ وانظر:" تيسير المنان في قصص القرآن/٢٠٦: ٢١٣"،" المستفاد من قصص القرآن/١٥٧: ١٦٠".

* وقوله- كذلك-:{ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ...؛ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}.

كلُّ هذا ظاهر في إنكار لوط عليه السلام على قومه ارتكابَ الفواحش، والمنكرات، ودعوته لهم لالتزام شرع الله فيها بالتحريم؛ فخطابُه عليه السلام لقومه ما هو إلا دعوةٌ لفعل الأمر، واجتناب النهي ليس إلا(1).

* وفي قوله:{ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ}؛ وَصَفَ لوط عليه السلام فعلَ قومه على سبيل الإنكار الشديد عليهم بأنه:" فاحشة"؛(أي: الفعلة المتناهية في القبح) (2).

* وفي قوله:{ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ}:

قال أبو السعود- رحمه الله-:(والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير، وتشديد التوبيخ، والتقريع فإن مباشرة القبيح: قبحٌ، واختراعه: أقبح؛ ولقد أنكر اللهُ تعالى عليهم- أولاً- إتيانَ الفاحشة ثم وبخهم بأنهم أول مَنْ عملها؛ فإنّ سبك النظم الكريم وإنْ كان على نفي كونهم مسبوقين من غير تعرض لكونهم سابقين لكن المراد أنهم سابقون لكل مَنْ عداهم من العالمين)(3).

(وقوله:{ فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي}؛ أي: اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم؛{ أليس منكم رجل رشيد}؛ أي: فيه خير يَقبل ما آمره به، ويترك ما أنهاه عنه)(4).

قال الطبري- رحمه الله-:(قوله:{ فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي}؛ يقول: فاخشوا الله أيها الناس، واحذروا عقابه في إتيانكم الفاحشة التي تأتونها وتطلبونها)(5).

وقال القرطبي- رحمه الله-:({ أليس منكم رجل رشيد}؛ أي: شديد يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر؛ وقيل: رشيد؛ أي: ذو رشد أو بمعنى راشد أو مرشد؛ أي: صالح أو مصلح)(6).

قال البغوي- رحمه الله-:({ بل أنتم قوم مسرفون}؛ مجاوزون الحلال إلى الحرام)(7).

---

(1) انظر:" المستفاد من قصص القرآن/161".

(2)" تيسير المنان في قصص القرآن/207".

(3)" تفسير أبي السعود3/245".

(4)" تفسير ابن كثير2/454".

(5)" تفسير الطبري12/85".

(6)" تفسير القرطبي9/77".

(7)" تفسير البغوي2/179"؛ ونحوه تماماً في:" تفسير الجلالين/205".

وقال السمرقندي- رحمه الله-:{ بل أنتم قوم مسرفون}؛ يعني: معتدين من الحلال إلى الحرام)[١].

وقال شيخ المفسرين الطبري- رحمه الله-:{ بل أنتم قوم مسرفون}؛ يقول: إنكم لقوم تأتون ما حرّم الله عليكم، وتعصونه بفعلكم هذا؛ وذلك هو الإسراف في هذا الموضع)[٢].

فدعوة لوط عليه السلام لقومه؛ هي- إذاً- دعوة لالتزام شرع الله بالوقوف عند حدوده من الحلال، والحرام بغير مجاوزة.

وتأمّل قول لوط عليه السلام لقومه:{ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ}؛ تتحقّق أنه خطاب دعوي لالتزام شرع الله بالوقوف عند حدوده من الحلال، والحرام[٣].

قال البغوي- رحمه الله-:{ بل أنتم قوم عادون}؛ معتدون، مجاوزون الحلال إلى الحرام)[٤].

وقال السمرقندي- رحمه الله-:{ بل أنتم قوم عادون}؛ يعني: معتدين من الحلال إلى الحرام)[٥].

وقال القرطبي- رحمه الله-:{ بل أنتم قوم عادون}؛ أي: متجاوزون لحدود الله)[٦].

وفي قَصَص شعيب عليه السلام:

* قال تعالى في سورة هود:{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ

(١)" تفسير السمرقندي١/٥٤٥".

(٢)" تفسير الطبري٨/٢٣٤".

(٣) انظر:" الكشاف٣/٣٣٤: ٣٣٥"،" التفسير الكبير٢٤/١٣٩".

(٤)" تفسير البغوي٣/٣٩٦"؛ ونحوه تماماً في:" تفسير الجلالين/٤٩٠".

(٥)" تفسير السمرقندي٢/٥٦٥".

(٦)" تفسير القرطبي١٣/١٣٢".

وَدُودٌ}؛[هود: ٨٤- ٩٠].

* وقال تعالى:{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}؛[الأعراف: ٨٥- ٨٦].

* وقال تعالى- أيضاً-:{ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}؛[الشعراء: ١٧٦- ١٨٣].

* وقال تعالى- كذلك-:{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}؛[العنكبوت: ٣٦].

فبدأ شعيبٌ عليه السلام دعوتَه قومه بالأمر بعبادة الله وحده، والتحذير من الشرك ثم دعاهم لالتزام شرع الله في البيع، والشراء، وسائر أعمالهم.

والآيات بَيِّنة في أن شعيباً عليه السلام بعد أن دعى قومه للتوحيد، ونهاهم عن الشرك؛ نهاهم- كذلك- عمّا هم عليه من المنكرات المخالفة لشرع الله من التطفيف في الكيل، والبخس في الميزان مع التعرض لأموال الناس بغير الحق، والإفساد في الأرض[١].

* وقوله تعالى حكايةً عن شعيب عليه السلام في خطابه لقومه:{ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ}.

* وقوله:{ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}.

---

(١) انظر:" البداية والنهاية ١/١٨٦"،" تيسير المنان في قصص القرآن/٢١٨"،" المستفاد من قصص القرآن/١٦٣"،" فبهداهم اقتده/٢٦٥".

* وقوله:{ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}.

كلُّ هذا ظاهر في إنكار شعيب عليه السلام على قومه ارتكابَ المنكرات، والوقوع في المخالفات الشرعية مع دعوته لهم لالتزام شرع الله في معاملاتهم المالية من البيع، والشراء، وسائر مناحي حياتهم؛ فخطابُه عليه السلام لقومه ما هو إلا دعوةٌ لفعل الأمر، واجتناب النهي ليس إلا[1].

* وفي قوله تعالى:{ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ}: غايةُ التأكيد عليهم بشتى صنوف الخطاب لإلزامهم اجتنابَ النهي، وامتثال الأمر، ووجوب التزام شرع الله في معاملاتهم[2].

* وقوله:{ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}؛ نَهْيٌ عام عن المحرمات؛ فهو تعميم بعد تخصيص؛(فإن العثي يعمّ نقصَ الحقوق، وغيره من أنواع الفساد)[3].

وعن قتادة- رحمه الله-؛ قال:" قوله:{ ولا تعثوا في الأرض مفسدين}؛ يقول: ولا تسيروا في الأرض تعملون فيها بمعاصي الله"[4].

قال السمرقندي- رحمه الله-:({ ولا تعثوا في الأرض مفسدين}؛ يعني: لا تسعوا في الأرض بالفساد، والمعاصي)[5].

* وفي قوله:{ بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ}:

قال أبو السعود- رحمه الله-: ({بقية الله}؛ أي: ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزّه عن تعاطي المحرمات؛{ خير لكم} ممّا تجمعون بالبخس، والتطفيف؛ فإن ذلك هباءً منثوراً بل شر محض وإن زعمتم أن فيه خيراً كقوله تعالى:{ يمحق الله الربا ويربي الصدقات})[6].

---

(١) انظر:" تفسير الطبري١٢/١٠١: ١٠٢"،" فتح القدير٢/٢٢٤"،" تيسير المنان في قصص القرآن/٢١٨: ٢٢٠"،" المستفاد من قصص القرآن/١٦٣: ١٦٥"،" فبهداهم اقتده/٢٦٥: ٢٦٧".

(٢) انظر:" التفسير الكبير١٨/٣٤: ٣٥".

(٣)" تفسير أبي السعود٤/٢٣٢"؛ ونحوه في:" تفسير البيضاوي٣/٢٥٢".

(٤)" تفسير الطبري١٢/١٠٠".

(٥)" تفسير السمرقندي٢/١٦٦".

(٦)" تفسير أبي السعود٤/٢٣٢"؛ وانظر:" التفسير الكبير١٨/٣٥".

وقال ابن كثير- رحمه الله-:(يعني: أن القليل من الحلال: خيرٌ لكم من الكثير من الحرام؛ فإنّ الحلال: مباركٌ وإنْ قلّ، والحرام: ممحوقٌ وإنْ كثر كما قال تعالى:{ يمحق الله الربا ويربي الصدقات}...؛ والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قلّ، والحرام لا يجدي وإن كثر؛ ولهذا قال نبي الله شعيب:{ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين})[1].

فدعوة شعيب عليه السلام- إذاً-: دعوةٌ لالتزام شرائع الله في الحلال، والحرام في معاملاتهم ابتغاءَ الله، والدار الآخرة؛ وقوله:{ بَقِيَّةُ اللّهِ}؛(قُرِىءَ:" تقية الله"؛ وهي تقواه، ومراقبته التي تصرف عن المعاصي)[2].

* وجاء قولُه:{ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا}: نهياً لهم(عن قطع الطريق: الحسية الدنيوية، والمعنوية الدينية)[3].

* وتأمّل قولَ شعيب عليه السلام لقومه:{ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}؛ فغايتُه التي يسعى إليها، ومقصده الأساس: إصلاحُ قومه بحملهم على شرع الله في حالهم كله.

قال الشوكاني- رحمه الله-:({ إن أريد إلا الإصلاح}؛ أي: ما أُريد بالأمر، والنهي إلا الإصلاح لكم، ودفع الفساد في دينكم، ومعاملاتكم؛{ ما استطعت}؛ ما بلغت إليه استطاعتي، وتمكنت منه طاقتي؛{ وما توفيقي إلا بالله}؛ أي: ما صرت موفّقاً، هادياً، نبيّاً، مرشداً إلا بتأييد الله سبحانه، وإقداري عليه، ومنحي إياه؛{ عليه توكلت}؛ في جميع أموري التى منها أمركم، ونهيكم...)[4].

ــــــ والحاصل؛ أن شعيباً عليه السلام كما دعا قومَه لتحقيق التوحيد بإفراد الله تعالى وحده بالعبادة: دعاهم لالتزام شرائع الدين في شأنهم كله سيما المعاملات المالية لشيوع الحرام فيها؛ وهذا كله ممّا يظهر أن حقيقة دين الإسلام الذي جاء به شعيبٌ عليه السلام لقومه؛ هو: التزام شرع الله من الأوامر، والنواهي؛ لا غير.

وقد قال الرازي- رحمه الله-:(واعلم أنّا بينّا أن الأنبياء عليهم السلام يَشرعون في أول الأمر بالدعوة إلى التوحيد؛ فلهذا قال شعيب عليه السلام:{ ما لكم من إله غيره}؛ ثم إنهم بعد الدعوة إلى التوحيد: يَشرعون في الأهم ثم

(١)" البداية والنهاية١/١٨٦".

(٢)" التفسير الكبير١٨/٣٥".

(٣)" البداية والنهاية١/١٨٦".

(٤)" فتح القدير٢/٥١٩".

الأهم)[1].

وقال أبو حيان الأندلسي- رحمه الله-:(فبدأهم- أولاً- بالمعصية الشنيعة التي كانوا عليها بعد الأمر بعبادة الله ثم ارتقى إلى عام ثم إلى أعم منه؛ وذلك مبالغة في النصح لهم، ولطف في استدراجهم إلى طاعة الله)[2].

* وقد قال الله تعالى:{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}؛[النساء: ٦٤- ٦٥].

ولو لم يكن في كتاب الله إلا هذا الموضع في بيان أن حقيقة دين الإسلام؛ هو: التزام الشرع الذي جاء به الأنبياء، والمرسلون من الأوامر، والنواهي: لكان كافياً، شافياً.

ــــ وتأمّل قوله تعالى هنا:{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}؛ حيث بُنيت الآية بناء لُغوياً محكماً هو الغاية في إفادة الحصر، والقصر؛ فجاء الاستثناء المفرغ ليقرّر أن إرسال الرسل ليس إلا لمقصد واحد لا غير؛ وهو طاعتهم فيما جاءوا به من عند الله!.

قال أبو السعود- رحمه الله-:(أي: وما أرسلنا رسولاً من الرسل لشيء من الأشياء إلا ليطاع بسبب إذنه تعالى في طاعته، وأمره الْمُرسَل إليهم بأن يطيعوه، ويتبعوه لأنه مؤدٍّ عنه تعالى؛ فطاعتُه: طاعةُ الله تعالى، ومعصيتُه: معصيتُه تعالى)[3].

وقال أبو حيان الأندلسي- رحمه الله-:(نبّه تعالى على جلالة الرسل، وأن العالم يلزمهم طاعتهم؛ والرسول منهم تجب طاعته؛ ولام:{ ليطاع}: لام كي، وهو استثناء مفرغ من المفعول من أجله؛ أي: وما أرسلنا من رسول بشيء من الأشياء إلا لأجل الطاعة)[4].

وقال الشوكاني- رحمه الله-:({ وما أرسلنا من رسول}؛{ من}؛ زائدة للتوكيد؛{ إلا ليطاع}؛ فيما أَمرَ به، ونهى عنه)[5].

---

(١)" التفسير الكبير١٨/٣٣".

(٢)" تفسير البحر المحيط٥/٢٥٣".

(٣)" تفسير أبي السعود٢/١٩٦"؛ ونحوه تماماً في:" روح المعاني٥/٧٠".

(٤)" تفسير البحر المحيط٣/٢٩٥".

(٥)" فتح القدير١/٤٨٣".

ـــــــ فمن البديهيات، المسلمات- إذاً- أن يكون التزام شرائع الدين من الأحكام، والأوامر، والنواهي- قولاً، وفعلاً، واعتقاداً- هو حقيقة العبادة التي خُلق لها الإنسان، وهو حقيقة الإسلامِ: دينِ الإنسان.

وتأمّل قول الرازي- رحمه الله- في هذه الآية:(المسألة الرابعة: الآية دالة على أنه لا رسول إلا ومعه شريعة ليكون مطاعاً في تلك الشريعة، ومتبوعاً فيها)(١).

قلت:(فالحكم لله وحده؛ ورسله يُبلغون عنه؛ فحكمُهم حكمُه، وأمرُهم أمرُه، وطاعتُهم طاعتُه؛ فما حكم به الرسول، وأمرهم به، وشرعه من الدين: وجب على جميع الخلائق اتباعه، وطاعته؛ فإن ذلك هو حكم الله على خلقه، والرسول يبلغ عن الله؛ قال تعالى:{ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله})(٢).

وقد(قال نوح:{ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون}؛ فجعل العبادةَ، والتقوى لله، وجعل له أن يُطاع كما قال تعالى:{وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله}؛ وكذلك قالت الرسل مثل نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وغيرهم:{ فاتقوا الله وأطيعون}؛ فجعلوا التقوى لله، وجعلوا لهم أن يطاعوا)(٣).

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(جميع الرسل أَخبروا أن الله أمر بطاعتهم كما قال تعالى:{ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله}؛ يأمرون بعبادة الله وحده، وخشيته وحده، وتقواه وحده، ويأمرون بطاعتهم كما قال تعالى:{ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون}، وقال نوح عليه السلام:{ اعبدوا الله واتقوه وأطيعون}، وقال في سورة:{ فاتقوا الله وأطيعون}؛ وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب، ولوط.

والناس محتاجون إلى الإيمان بالرسول، وطاعته في كل مكان، وزمان: ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، سراً وعلانيةً، جماعةً وفُرادى؛ وهم أحوج إلى ذلك من الطعام، والشراب بل من النَّفس؛ فإنهم متى فقدوا ذلك: فالنار جزاء من كذّب بالرسول، وتولى عن طاعته كما قال تعالى:{ فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى}؛ أي: كذّب به، وتولّى عن طاعته كما قال في موضع آخر:{ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى}، وقال تعالى:{ إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً}، وقال تعالى:{ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً}، وقال تعالى:

---

(١)" التفسير الكبير١٢٩/١٠"؛ ونقله عنه في:" تفسير البحر المحيط٢٩٥/٣".

(٢)" الفتاوى لابن تيمية٣٦٣/٣٥".

(٣)" الفتاوى لابن تيمية٧٢/١".

{يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض})[1].

ـــــــ ويظهر لنا من مجموع ما سبق معنا هنا: أن الإيمان بالله ثم بأنبيائه، ورسله يتضمّن تصديقاً، وانقياداً؛ فكما يجب على الخلق أن يصدقوا الرسل عليهم السلام فيما أخبروا به: فإنّ عليهم أن يطيعوهم فيما جاءوا به من شرائع الدين من الأحكام، والأوامر، والنواهي: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً؛ وهو مقتضى ما تقدّم معنا من الأدلة كما في قوله تعالى:{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}؛[النساء: ٦٤].

ولذا؛ يقول محمد بن نصر المروزي- رحمه الله- في تعريف الإيمان:(الإيمان بالله: أن توحده، وتصدّق به بالقلب، واللسان، وتخضع له، ولأمره بإعطاء العزم للأداء لما أمره، مجانباً للاستنكاف، والاستكبار، والمعاندة؛ فإذا اتبعت ما جاء به: أديت الفرائض، وأحللت الحلال، وحرّمت الحرام، ووقفت عند الشبهات، وسارعت في الخيرات)[2].

فـ(لابد أن يقترن بالعلم في الباطن: مقتضاه من العمل الذي هو المحبة، والتعظيم، والانقياد؛ ونحو ذلك كما أنه لابد أن يقترن بالخبر الظاهر: مقتضاه من الاستسلام، والانقياد لأهل الطاعة)[3].

ـــــــ وبعد:

* فقد قال تعالى:{ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ}؛[آل عمران: ١٩].

* وقال تعالى:{ قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}؛[آل عمران: ٨٤- ٨٥].

و(الإسلام؛ هو: الاستسلام، والانقياد، والخضوع)[4]؛ أي: التزام الشرع من الأحكام، والأوامر، والنواهي: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً.

قال الإمام الطبري- رحمه الله-:(فتأويل قوله:{ إن الدين عند الله الإسلام}؛ إن الطاعة التي هي الطاعة عنده:

---

(١)" الرد على الأخنائي/١١٦".

(٢)" تعظيم قدر الصلاة١/٣٩٢: ٣٩٣".

(٣)" التسعينية٥/١٦٦".

(٤)" التفسير الكبير٨/١٠٧".

الطاعة له، وإقرار الألسن، والقلوب له بالعبودية، والذلة، وانقيادها له بالطاعة فيما أمر، ونهى، وتذللها له بذلك من غير استكبار عليه، ولا انحراف عنه دون إشراك غيره من خلقه معه في العبودية، والألوهية)[1].

قلت:(فهذا دين الإسلام الذى لا يَقبل اللهُ غيرَه؛ وذلك إنما يكون بأن يُطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت...؛ فالدين: هو الطاعة، والعبادة له)[2].

ـــــ وهذا البيان لمعنى" الإسلام": يجمع لنا كلَّ ما تقدَّم من الوجوه، ويُبين أن التزام شرائع الدين من الأحكام، والأوامر، والنواهي- قولاً، وفعلاً، واعتقاداً-؛ هو: حقيقة العبادة التي خُلق لها الإنسان كما أنه حقيقة الإسلامِ: دينِ الإنسان.

(وأمّا فوائد الأمر، والنهي: فأعظم من أن يحصيها خطابٌ أو كتاب بل هي الجامعة لكل خير يُطلب، ويُراد، وفى الخروج عنها كلُّ شر، وفساد)[3].

(١)" تفسير الطبري٣/٢١٢".

(٢)" الفتاوى لابن تيمية٣/٩١: ٩٢".

(٣)" الفتاوى لابن تيمية١١/٤١٦".

الأصل العاشر

الإخلاص والاتباع شرطا قبول الأعمال

ويتحقّق معنا هذا الأصل العاشر من مجموع المحاور التالية:

المحور الأول: وجوب إخلاص العمل لله وحده:

ونتكلم عن الإخلاص كأحد أهم فروض الأعيان في حق المسلم من خلال الآتي:

أولاً: تعريف" الإخلاص"؛ لغةً، وشرعاً:

ـــــــ أمّا في اللغة: فقد جاء في:" تاج العروس"؛ ما نصّه:

(خلص الشيء، يخلص- بالضم-، خلوصاً كقعود، وخالصة كعافية، وعاقبة...؛ ويُقال: هذا الشيء خالصة لك؛ أي: خالص لك خاصة...

وخلاصة السمن بالضم- وعليه اقتصر الجوهري-، والكسر- نقله الصاغاني عن الفراء-: ما خلص منه لأنهم إذا طبخوا الزبد ليتخذوه سمناً؛ طرحوا فيه شيئاً من سويق، وتمر، وأبعار غزلان؛ فإذا جاد، وخلص من الثفل؛ فذلك السمن: هو الخلاصة، والخلاص بالكسر...

وقال أبو زيد: الزبد حين يجعل في البرمة ليطبخ سمناً: فهو الإذواب، والإذوابة؛ فإذا جاد، وخلص اللبن من الثفل؛ فذلك اللبن: الإثر، والإخلاص.

وقال الأزهري: سمعتُ العرب تقول لما يخلص به السمن في البرمة من الماء، واللبن، والثفل: الخلاص؛ وذلك إذا ارتجن، واختلط اللبن بالزبد؛ فيؤخذ تمر أو دقيق أو سويق: فيطرح فيه ليخلص السمن من بقية اللبن المختلط به؛ وذلك الذي يخلص هو الخلاص بالكسر؛ وأمّا الخلاصة: فهو ما بقي في أسفل البرمة من الخلاص، وغيره من ثفل أو لبن، وغيره.

وقال أبو الدُّقَيش: الزبد خلاص اللبن؛ أي: منه يستخلص؛ أي: يستخرج؛ والخلاص: ما أخلصته النار من الذهب، والفضة، والزبد؛ وكذلك: الخلاصة...؛ والمصدر منه: الإخلاص...

وأخلص لله الدين: أمحضه، وترك الرياء فيه؛ فهو عبد مُخلِص، ومُخْلَص...؛ يقال: أخلص، وخلص: إخلاصاً، وخلاصاً، وخلوصاً إذا أخذ الخلاصة...

وخلّص الله فلاناً: نجاه بعد أن كان نشب كأخلصه؛ فتخلص كما يتخلص الغزل إذا التبس...

وياقوت مخلّص؛ أي: منقّي، وقيل لسورة:﴿ قل هو الله أحد﴾: سورة الإخلاص؛ قال ابن الأثير: لأنها خالصة في صفة الله تعالى أو لأن اللافظ بها قد أخلص التوحيد لله عز وجل؛ وكلمة الإخلاص: كلمة التوحيد؛ والخالصة: الإخلاص.

وقوله عز وجل:﴿ خلصوا نجيّاً﴾؛ أي: تميّزوا عن الناس يتناجون فيما أهمَّهم؛ ويوم الخلاص: يوم خروج الدجال لتمييز المؤمنين، وخلاص بعضهم من بعض)[1].

ـــــ ويظهر لنا ممّا سبق أن هذه المادة:" خ، ل، ص"؛ تدور حول تخليص الشيء، وتجريده من غيره.

قال ابن فارس- رحمه الله-:(الخاء، واللام، والصاد: أصلٌ واحد، مطرد؛ وهو: تنقية الشيء، وتهذيبه؛ يقولون: خَلّصته من كذا، وخَلص هو...)[2].

و(اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره؛ فإذا صفا عن شوبه، وخلص عنه: سُمّي خالصاً، ويُسمّى الفعل المصفي المخلص: إخلاصاً؛ قال الله تعالى:﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾؛ فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم، والفرث، ومن كل ما يمكن أن يمتزج به)[3].

- فالإخلاص لغةً- إذاً-: تنقيةُ الشيء، وتجريده من كل ما خالطه.

ـــــ أمّا عن تعريف الإخلاص في الشرع؛ فقد قِيلت فيه حدودٌ كثيرة؛ منها:

ما جاء في" الكليات"؛ من أن(الإخلاص: هو القصد بالعبادة إلى أن يُعبد المعبود بها وحده؛ وقيل: تصفية

(١) مادة:" خلص":" تاج العروس١٧/٥٥٧: ٥٦٣"؛ وانظر:" تهذيب اللغة٧/٦٤: ٦٥".

(٢)" مقاييس اللغة٢/٢٠٨".

(٣)" إحياء علوم الدين٤/٣٧٩".

السر، والقول، والعمل)[1].

وقد قال ابن القيم- رحمه الله-:(الإخلاص: هو تجريد القصد طاعةً للمعبود)[2].

وقال السيوطي في" معجم مقاليد العلوم":(الإخلاص: إفراد الحق في الطاعة بالقصد؛ وقيل: ارتفاع الرؤية عن الفعل، وقيل: تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين)[3].

وقد جاء عن يحيى بن معاذ- رحمه الله- أنه قال:" الإخلاص: تميز العمل من العيوب كتميز اللبن من بين الفرث، والدم"[4].

وقريب منه: قول الرازي- رحمه الله-:(الإخلاص: هو أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة؛ ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل)[5].

ـــ وبالجملة؛ فـ(قد تنوعت عباراتهم في الإخلاص، و الصدق؛ والقصد: واحد؛ فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة؛ وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين؛ وقيل: التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك، والصدق التوقي من مطالعة النفس؛ فالمخلص: لا رياء له، والصادق: لا إعجاب له؛ ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص؛ ولا يتمّان إلا بالصبر)[6].

ثانياً: حقيقة الإخلاص:

ممّا هو مقرّر ضرورةً: كونُ(الإخلاص يضاده الإشراك؛ فمَنْ ليس مخلصاً: فهو مشرك إلا أن الشرك درجات؛ فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية، والشرك منه خفي، ومنه جلي؛ وكذا الإخلاص؛ والإخلاص،

(١)" الكليات في المصطلحات والفروق اللغوية/٦٤"؛ أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، ت: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ.

(٢)" إعلام الموقعين٢/١٨٢".

(٣)" معجم مقاليد العلوم/٢١٩".

(٤)" تفسير الثعلبي٢/٧".

(٥)" التفسير الكبير٣٢/٤٣".

(٦)" مدارج السالكين٢/٩١".

وضده: يتواردان على القلب؛ فمحله القلب؛ وإنما يكون ذلك في القصود، والنيات)[1].

ولذا؛ قال الإمام الكبير سعيد بن جبير- رحمه الله-:" الإخلاص: أن يخلص العبد دينه، وعمله لله، ولا يشرك به في دينه، ولا يرائي بعمله أحداً"[2].

وأخرج البيهقي بسنده عن سهل بن عبد الله التستري- رحمه الله-؛ قال:" نظر الأكياس في تفسير الإخلاص؛ فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركاته، وسكونه في سره، وعلانيته لله وحده، لا شريك له؛ لا يمازجه شيء: لا نفس، ولا هوى، ولا دنيا"[3].

وقال القشيري- رحمه الله-:(الإخلاص: إفراد الحق في الطاعة بالقصد؛ وهو: أن يريد بطاعته التقرب الى الله تعالى دون شئ آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة أو مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى)[4].

وعن أبي إدريس الخولاني- رحمه الله-؛ قال:" ما بلغ عبدٌ حقيقةَ الإخلاص حتى لا يحب أن يحمده أحدٌ على شيء من عمل الله عز وجل"[5].

ثالثاً: منزلة الإخلاص من الدين:

الإخلاص: أصل الدين، وقاعدته الأساس التي يقوم عليها بناؤه كله؛ وهو: حقيقة الإسلام، وحقيقة الإيمان، وحقيقة الإحسان؛ وهو- كذلك- حقيقة التوحيد: أوله، ومنتهاه؛ وهو- بعد- الروح التي إذا سرت في الأعمال: وهبتها- بإذن الله- حياةً دائمة، وصنعت بها المعجزات.

ولهذا كله؛ كان أكثرَ الأعمال أمراً به، وحثّاً عليه، ونهياً عن ضده؛ ومن ذلك:

---

(١)" إحياء علوم الدين٤/٣٧٩".

(٢)" تفسير الثعلبي٢/٦".

(٣)" سنن البيهقي الصغرى١/٢٢"؛ ونحوه في:" الأذكار للنووي/٦".

(٤)" التبيان في آداب حملة القرآن/١٧"؛ ونحوه في:" الأذكار للنووي/٦".

(٥)" تاريخ دمشق٢٣/٤١٩".

* قوله تعالى في مفتتح سورة الزمر:﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾؛[الزمر: ١- ٣].

* وقال تعالى:﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾؛[الزمر: ١١- ١٥].

* وقال تعالى:﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛[الأعراف: ٢٩- ٣٠].

* وقال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾؛[غافر: ١٣- ١٤].

* وقال تعالى:﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛[غافر: ٦٥- ٦٦].

ـــــ فهذه الآيات- وغيرها- كلها آمرة بالإخلاص، وداعية إليه، وحاثّة عليه.

* وقد قال تعالى:﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾؛[البينة: ٥].

فَبَيَّن تعالى في هذه الآية أن الأمر بالإخلاص في عبادته هو دينه الذي أرسل به جميع رسله، ونزلت به كل كتبه.

فالآية ناطقة بـ(أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد، ودين واحد؛﴿ وما أمروا﴾ في سائر الشرائع:﴿ إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾؛ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة، والباطنة وجهَ الله، وطلبَ الزلفى لديه)[١].

---

(١)" تفسير السعدي/٩٣١".

بل الآية دالة على أن" الإخلاص": هو أساس الدين، وأصله؛ وقوله تعالى هنا:﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾؛(أي: الملة، والشريعة المستقيمة؛ أضاف الدين إلى القيمة وهي نعته لاختلاف اللفظين، وأنّث القيمة ردّاً بها إلى الملة)(١).

* وقد جاء من حديث جبير بن مطعم- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في حجة الوداع:" ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىء مؤمن: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعاءهم محيطٌ من ورائهم"(٢).

و(قوله:" ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن"؛ فمعناه: لا يكون القلب عليهن، ومعهن غليلاً أبداً؛ يعني: لا يقوى فيه مرض، ولا نفاق إذا أخلص العمل لله، ولزم الجماعة، وناصح أولي الأمر)(٣).

* وعن أبي أمامة الباهلي- رضي الله عنه- قال:" جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر، والذكر؛ ما له؟؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا شيء له؛ فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا شيء له ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، وابتُغِي به وجهه"(٤).

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(لابد في جميع الواجبات، والمستحبات أن تكون خالصة لله ربّ العالمين كما قال تعالى:﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾؛[البينة: ٤- ٥]، وقال تعالى:﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز

---

(١) تفسير البغوي٤/٥١٤"، ونحوه في:" تفسير ابن كثير٤/٥٣٨".

(٢) المستدرك١/١٦٢، ١٦٣"،" سنن ابن ماجه٢/١٠١٥"،" سنن الدارمي١/٨٦"،" المعجم الكبير٢/١٢٦"؛ وهذا الحديث: طرفٌ من حديث صحيح، مشهور، مروي عن عدد كبير من الصحابة في دواوين السنة المختلفة؛ قال الحاكم:(وفي الباب عن جماعة من الصحابة منهم عمر، وعثمان، وعلي، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وابن عمر، وابن عباس، وأبو هريرة، وأنس- رضي الله عنهم-، وغيرهم عدة؛ وحديث النعمان بن بشير من شرط الصحيح)." المستدرك١/١٦٣"

وقال المنذري:(وقد روي هذا الحديث- أيضاً- عن ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، والنعمان بن بشير، وجبير بن مطعم، وأبي الدرداء، وأبي قرصافة جندرة بن خيشنة، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم؛ وبعض أسانيدهم صحيح)." الترغيب والترهيب١/٢٣"

قلت: وقد جمع طرق هذا الحديث الحافظ أبو عمرو المديني في جزء مفرد، مطبوع؛ وانظر:" جامع بيان العلم وفضله١/٣٨: ٤٢"،" مجمع الزوائد ١/١٣٧: ١٣٩".

(٣)" التمهيد٢١/٢٧٧".

(٤) النسائي٦/٢٥":(كتاب الجهاد، باب: من غزا يلتمس الأجر والذكر؛ ح: ٣١٤٠)؛ والحديث: حسّنه العراقي في:" المغني عن حمل الأسفار٢/١١٧٧"كما جوّد إسناده الحافظُ ابن رجب في:" جامع العلوم والحكم/١٦"، وكذا ابن حجر في:" الفتح٦/٢٨"؛ وللحديث شواهد عدة؛ انظر:" سنن البيهقي٩/٢٨٢".

الحكيم إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص﴾؛[الزمر: ١- ٣].

فكل ما يفعله المسلم من القُرب الواجبة، والمستحبة كالإيمان بالله ورسوله، والعبادات البدنية والمالية، ومحبة الله ورسوله، والإحسان إلى عباد الله بالنفع، والمال: هو مأمورٌ بأن يفعله خالصاً لله رب العالمين؛ لا يطلب من مخلوق عليه جزاء؛ لا دعاء، ولا غير دعاء؛ فهذا ممّا لا يسوغ أن يُطلب عليه جزاء؛ لا دعاء، ولا غيره)[١].

المحور الثاني: وجوب اتباع الكتاب والسنة في الأعمال كلها:

ونتكلم عن فرضية الاتباع في حق المسلم؛ في كل ما يقوم به من أعمال من خلال الآتي:

أولاً: تعريف الاتباع لغةً وشرعاً:

جاء في:" لسان العرب"؛ ما نصّه:(تبع؛ تبع الشيء، تبعاً، وتباعاً في الأفعال، وتبعت الشيء تبوعاً: سرتُ في إثره، واتبعه، وأتبعه، وتتبعه: قفاه، وتطلبه متبعاً له...؛ والتابع: التالي، والجمع: تبع، وتباع، وتبعة؛ والتبع: اسم للجمع...؛ والتبع: يكون واحداً، وجماعة؛ وقوله عزّ وجلّ:{ إنّا كنّا لكم تبعاً}؛ يكون اسماً لجمع تابع، ويكون مصدراً؛ أي: ذوي تبع؛ ويجمع على أتباع...)[٢].

ــــ وكلامه في اللسان يُبيّن أن مدار هذه المادة- ت ب ع- على الاقتفاء، والاقتداء، واللحاق بالغير، والسير خلفه.

وقد قال ابن فارس- رحمه الله-:(تبع؛ التاء، والباء، والعين: أصلٌ واحد، لا يشذ عنه من الباب شيء؛ وهو: التلو، والقفو؛ يُقال: تبعتُ فلاناً؛ إذا تلوته؛ واتبعته، وأتبعته؛ إذا لحقته...)[٣].

ــــــ أمّا عن التعريف الاصطلاحي للاتباع المراد هنا؛ فهو:(الائتمار بما أمر الله تعالى به، ورسوله صلى الله عليه وسلم، وترسّم أفعاله، وأحواله صلى الله عليه وسلم للاقتداء بها)[٤].

---

(١)" الفتاوى١/١٩٠".

(٢)" لسان العرب٨/٢٧: ٢٨".

(٣)" مقاييس اللغة١/٣٦٢".

(٤)" الاتباع في بيان القرآن١/٥٧".

ثانياً: أدلة فرضية الاتباع من الكتاب والسنة:

وأدلة وجوب اتباع الكتاب، والسنة: كثيرةٌ، متوافرة، متضافرة؛(فلم نجد في كتاب الله، وسنة رسوله، وآثار صحابته إلا الحث على الاتباع، وذم التكلف والاختراع)[1].

ـــــــ والناظر في القرآن الكريم: يجد جملةً كبيرة من الآيات البينات في الأمر بالاتباع، والحث عليه؛ منها:

* قوله تعالى:{ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ}؛[آل عمران: ١٠٣].

والآية: نصٌّ ظاهر، محكم في وجوب اتباع الكتاب، والسنة، والتمسك بهما في الأمر كله: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً.

قال القرطبي- رحمه الله- في الآية المذكورة:(فَأَوجب تعالى علينا التمسك بكتابه، وسنة نبيه، والرجوع إليهما عند الاختلاف؛ وَأَمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب، والسنة: اعتقاداً، وعملاً؛ **وذلك سبب اتفاق الكلمة، وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا، والدين)**[2].

* وقال تعالى:{ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}؛[الأنعام: ١٥٣].

فأمر سبحانه وتعالى باتباع صراطه المستقيم؛ والذي هو: الكتاب، والسنة؛ ثم نهى عن اتباع غيرهما من الآراء، والأهواء أياً كانت.

فالآية: نصٌّ محكم في تقرير(أن الطريق الموصلة الى الله: واحدة؛ وهو: ما بَعث به رسلَه، وأنزل به كتبَه؛ لا يصل إليه أحدٌ إلا من هذه الطريق؛ ولو أتى الناسُ من كل طريق، واستفتحوا من كل باب؛ فالطرق عليهم: مسدودةٌ، والأبواب عليهم: مغلقةٌ إلا من هذا الطريق الواحد)[3].

قال القرطبي- رحمه الله-:(فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه؛ ونهايته الجنة، وتشعبت منه طرق؛ فمَنْ سلك الجادة: نجا، ومَنْ خرج إلى تلك الطرق: أفضت به إلى النار)[4].

* وقال تعالى- أيضاً-:{ وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}؛[النحل: ٩].

---

(١)" شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٢٢".

(٢)" تفسير القرطبي٤/١٦٤".

(٣)" شرح نونية ابن القيم١/١٢٦".

(٤)" تفسير القرطبي٧/١٣٧".

قال ابن كثير- رحمه الله-:(لَمّا ذَكرَ تعالى من الحيوانات ما يُسار عليه في السبل الحسية: نَبَّه على الطرق المعنوية الدينية؛ وكثيراً ما يقع في القرآن العبورُ من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية كقوله تعالى:{ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى}، وقال تعالى:{ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير}.

ولَمّا ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام، وغيرها التي يركبونها، ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد، والأماكن البعيدة، والأسفار الشاقة: شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه؛ فبين أن الحق منها: ما هي موصلة إليه؛ فقال:{ وعلى الله قصد السبيل}؛ كقوله:{ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} وقال:{ قال هذا صراط علي مستقيم}.

قال مجاهد في قوله:{ وعلى الله قصد السبيل}؛ قال: طريق الحق على الله، وقال السدي:{ وعلى الله قصد السبيل}؛ الإسلام، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله:{ وعلى الله قصد السبيل}؛ يقول: وعلى الله البيان؛ أي: يُبين الهدى، والضلال؛ وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه؛ وكذا قال قتادة، والضحاك.

وقول مجاهد ها هنا أقوى من حيث السياق لأنه تعالى أخبر أن ثَم طرقاً تُسلك إليه؛ فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق؛ وهي الطريق التي شرعها، ورضيها؛ وما عداها: مسدودة، والأعمال فيها مردودة؛ ولهذا قال تعالى:{ومنها جائر}؛ أي: حائد، مائل، زائغ عن الحق؛ قال ابن عباس، وغيره: هي الطرق المختلفة، والآراء، والأهواء المتفرقة كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية)[1].

والآية- كما هو ظاهر- عامة، شاملة؛ فيدخل في قوله:{ ومنها جائر}: كل طريق مخالف لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً.

* وقد قال الله تعالى:{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا}؛[الأحزاب: ٣٦].

قال الإمام ابن كثير- رحمه الله-:(فهذه الآية عامة في جميع الأمور؛ وذلك أنه إذا حكم الله، ورسوله بشيء: فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ههنا، ولا رأي، ولا قول كما قال تبارك وتعالى:{ فلا وربك لا يؤمنون حتى

(١)" تفسير ابن كثير٢/٥٦٤".

يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً}، وفي الحديث:" والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به"؛ ولهذا شدّد في خلاف ذلك فقال:{ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً}؛ كقوله تعالى:{ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم})[1].

وقال ابن القيم- رحمه الله-:(فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه، وقضاء رسوله؛ ومَنْ تَخَيَّر بعد ذلك: فقد ضلّ ضلالاً مبيناً)[2].

* وقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}؛ [الحجرات: ١].

عن ابن عباس- رضي الله عنهما-؛ قال:" لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة".

وعن مجاهد- رحمه الله-؛ قال:" لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضيه الله على لسانه".

وعن الضحاك- رحمه الله-؛ قال:" لا تقضوا أمراً دون الله، ورسوله من شرائع دينكم".

وعن سفيان- رحمه الله-؛ قال:" لا تقضوا أمراً دون رسول الله".

وعنه- أيضاً-:" لا تُقدموا بين يدي الله، ورسوله بقول، ولا فعل".

وقال ابن زيد- رحمه الله-:" لا تقطعوا الأمر دون الله، ورسوله"[3].

ــــ والآية تعم كلّ ما ذكره هؤلاء الأئمة- رضوان الله عليهم- جميعاً؛ فالله سبحانه وتعالى قد نهى عباده عن أن يُقدموا شيئاً من آرائهم، وأهوائهم، واستحساناتهم، وأفكارهم، وسياساتهم، وأفعالهم، وغير ذلك ممّا قد يصدر عنهم أو يختاروه لأنفسهم على ما جاء به صلوات ربي وسلامه عليه من الكتاب، والسنة.

قال القرطبي- رحمه الله-:(أي: لا تُقدّموا قولاً، ولا فعلاً بين يدي الله، وقول رسوله، وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين، والدنيا؛ ومَنْ قدّم قوله أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم: فقد قدّمه على الله

(١)" المرجع السابق٣/٤٩١".

(٢)" إعلام الموقعين١/٥١".

(٣) انظر هذه الآثار في:" تفسير الطبري٢٦/١١٦: ١١٧"،" تفسير القرطبي١٦/٣٠١"،" تفسير ابن كثير٤/٢٠٦".

تعالى لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل)[1].

ثم قال- رحمه الله-:(قوله تعالى:{ لا تُقدّموا بين يدي الله ورسوله}: أصلٌ في ترك التعرض لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه، والاقتداء به)[2].

وقد قال ابن القيم- رحمه الله-:(أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تُفتوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه، ويمضيه...؛ والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول، ولا فعل قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يفعل)[3].

ـــــــ وكما أن القرآن الكريم يتضافر، ويتواتر على وجوب الاتباع؛ فكذلك السنة: جاءت متضافرة، متواترة على وجوب الاتباع؛ ومن ذلك:

* حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً؛ فيرضى لكم: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا؛ ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال"[4].

وقوله عليه السلام في هذا الحديث:" وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا"؛ هو عين قوله تعالى في آية آل عمران التي تقدّمت:{ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ}؛ وما سبق معنا من دلالة الآية على وجوب اتباع الكتاب، والسنة: يُقرّر نفسه هنا في دلالة الحديث على وجوب اتباع الكتاب، والسنة؛ فكلاهما من مشكاة واحدة.

* وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع:" يا أيها الناس؛ إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم"[5].

* وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إني قد خلفتُ فيكم ما لن

---

(١)" تفسير القرطبي١٦/٣٠٠".

(٢)" نفس المرجع١٦/٣٠٢".

(٣)" إعلام الموقعين١/٥١".

(٤)" مسلم٣/١٣٤٠".

(٥)" المستدرك على الصحيحين١/١٧١"،" سنن البيهقي الكبرى١٠/١١٤"،" الشريعة للآجري٥/٢٢١٩"،" السنة للمروزي/٢٦"،" كنز العمال ١/١٠٧"؛ عن ابن عباس؛ والحديث: صحّحه الحاكم، والألباني، وغيرهما.

تضلوا بعدهما ما أخذتم بهما أو عملتم بهما: كتاب الله، وسنتي؛ ولن يفترقا حتى يردا على الحوض"[1].

فالكتاب، والسنة؛ هما:(الأصلان اللذان لا عدول عنهما، ولا هدى إلا منهما، والعصمة والنجاة لمن تمسك بهما، واعتصم بحبلهما؛ وهما: الفرقان الواضح، والبرهان اللائح بين المحق إذا اقتفاهما، والمبطل إذا خلاهما؛ فوجوب الرجوع إلى الكتاب، والسنة: متعينٌ، معلوم من الدين بالضرورة)[2].

* ومن حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-؛ قال:" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب: احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش؛ يقول: صبّحكم، ومسّاكم؛ ويقول: بعثتُ أنا والساعة كهاتين- ويقرن بين أصبعيه: السبابة، والوسطى-؛ ويقول: أمّا بعد؛ فإن خير الحديث: كتاب الله، وخير الهدي: هدي محمد، وشر الأمور: محدثاتها، وكل بدعة: ضلالة"[3].

* وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-؛ قال:" خَطّ لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خطاً؛ ثم خطّ عن يمينه، وعن شماله خطوطاً؛ ثم قال: هذا سبيل الله، وهذه السبل؛ على كل سبيل منها: شيطانٌ يدعو إليه؛ ثم قرأ: {وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله}"[4].

وقد ترجم الإمام ابن حبان- رحمه الله- لهذا الحديث بقوله:

" ذِكْرُ الإخبار عمّا يجب على المرء من لزوم سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم، وحفظه نفسه عن كل مَنْ يأباها من أهل البدع وإنْ حسّنوا ذلك في عينه، وزيّنوه"[5].

ثم عاد ابن حبان- رحمه الله-؛ فترجم للحديث مرةً أخرى بقوله:" ذِكْرُ ما يجب على المرء من ترك تَتَبُّع السبل دون لزوم الطريق الذي هو الصراط المستقيم"[6].

---

(١)" المستدرك١/١٧٢"،" سنن البيهقي الكبرى١٠/١١٤"،" الفقيه والمتفقه١/٢٧٤"،" اعتقاد أهل السنة١/٨٠"؛ والحديث: صحّحه الحاكم، والألباني، وغيرهما.

(٢)" فيض القدير٣/٢٤١".

(٣)" مسلم٢/٥٩٢".

(٤)" المستدرك على الصحيحين٢/٣٤٨"،" صحيح ابن حبان١/١٨٠، ١٨١"،" سنن النسائي الكبرى٦/٣٤٣"،" سنن الدارمي١/٧٨"،" سنن سعيد بن منصور٥/١١٢"،" مسند أحمد١/٤٣٥"،" مسند البزار٥/١٣١"،" مسند الشاشي٢/٥١"،" مسند الطيالسي١/٣٣"؛ والحديث: صحّحه الحاكم، وابن حبان، والقرطبي، وأحمد شاكر؛ وحسّنه: المناوي، والألباني، والأرناؤوط، والوادعي.

(٥)" صحيح ابن حبان١/١٨٠".

(٦)" صحيح ابن حبان١/١٨١".

المحور الثالث: الأدلة النصية الخاصة في اشتراط الإخلاص، والاتباع معاً في قبول الأعمال كلها:

ـــ سبق معنا في المحور الأول من هذا الأصل العاشر بيانُ أن الإخلاص: فرضُ عين في الأعمال كلها كما سبق معنا في المحور الثاني بيانُ أن الاتباع- كذلك- فرضُ عين في الأعمال كلها؛ ونَذْكُر في هذا المحور الثالث بعضَ الأدلة النصية الخاصة في بيان أن الإخلاص، والاتباع معاً: شرطا قبول الأعمال؛ فَمَنْ تخلف عن عمله أحدُهما: فعمله مردود، وسعيه في غير محل؛ ومن تلك الأدلة:

* قوله تعالى: { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً }؛[النساء: ١٢٥].

فنصَّ تعالى على أنه لا أحد أحسن ديناً ممّن جمع وصفين؛ الأول: إسلام الوجه لله وحده؛ وهو: الإخلاص، والثاني: الإحسان في العمل؛ وهو: إيقاع التكليف على الوجه الذي يُحبه الله ويرضاه؛ وهو: الاتباع.

قال ابن كثير- رحمه الله-:(قوله تعالى: { ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله }؛ أي: أخلص العملَ لربه عز وجل؛ فعمل إيماناً واحتساباً؛ { وهو محسن }؛ أي: اتَّبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق؛ **وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما؛ أي: يكون خالصاً، صواباً؛ والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون متابعاً للشريعة؛ فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص؛ فمتى فَقَدَ العملُ أحدَ هذين الشرطين: فَسدَ؛ فمتى فَقَدَ الإخلاصَ: كان منافقاً؛ وهم الذين يراؤون الناس، ومَنْ فَقَدَ المتابعة: كان ضالاً، جاهلاً؛ ومتى جمعهما: كان عمل المؤمنين؛** { الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم }؛ الآية؛ ولهذا قال تعالى: { واتبع ملة إبراهيم حنيفاً }؛ وهم: محمدٌ، وأتباعه إلى يوم القيامة)[١].

وقال السعدي- رحمه الله-:({ ومن أحسن ديناً }؛ أي: لا أحد أحسن من دين مَنْ جمع بين الإخلاص للمعبود؛ وهو: إسلام الوجه لله الدال على استسلام القلب، وتوجهه، وإنابته، وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله؛ وهو مع هذا الإخلاص والاستسلام: { محسن }؛ أي: متبع لشريعة الله التي أرسل الله بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً لخواص خلقه، وأتباعهم؛ { واتبع ملة إبراهيم }؛ أي: دينه، وشرعه)[٢].

---

(١)" تفسير ابن كثير ١/٥٦٠".

(٢)" تفسير السعدي/٢٠٦".

* وقد ردّ الله سبحانه وتعالى على أهل الكتاب حين زعموا أنهم أهل الجنة بقوله: { تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }؛[البقرة: ١١١- ١١٢].

فوصف دعواهم بأنها مجرد أماني؛ ثم بَيّن تعالى أن برهان الإيمان الصادق، ودخول الجنة لا يكون إلا لمن جمع بين الإخلاص، والمتابعة.

قال السعدي- رحمه الله-:(أي: قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان نصارى؛ فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم؛ وهذا مجرد أماني غير مقبولة إلا بحجة، وبرهان: فأتوا بها إن كنتم صادقين؛ وهكذا كل مَنْ ادّعى دعوى لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه؛ وإلا: فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان: لكان لا فرق بينهما؛ فالبرهان هو الذي يُصدّق الدعاوى أو يكذبها؛ ولما لم يكن بأيديهم برهان: عُلِمَ كذبهم بتلك الدعوى.

ثم ذكر تعالى البرهان الجلي، العام لكل أحد؛ فقال:{ بلي}؛ أي: ليس بأمانيكم، ودعاويكم؛ ولكن:{ مَنْ أسلم وجهه لله}؛ أي: أخلص لله أعماله، متوجهاً إليه بقلبه؛ وهو مع إخلاصه:{ محسن}؛ في عبادة ربه بأن عَبَدَه بشرعه؛ فأولئك هم أهل الجنة وحدهم)[1].

وقد قال ابن كثير- رحمه الله-:(قال تعالى:{ بلى مَنْ أسلم وجهه لله وهو محسن}؛ أي: مَنْ أخلص العمل لله وحده، لا شريك له كما قال تعالى:{ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن}؛ الآية، وقال أبو العالية، والربيع:{ بلى مَنْ أسلم وجهه لله}؛ يقول: مَنْ أخلص لله، وقال سعيد بن جبير:{ بلى مَنْ أسلم}؛ أخلص؛ {وجهه}؛ قال: دينه؛{ وهو محسن}؛ أي: اتبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم؛ **فإن للعمل المتقبل شرطين؛ أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً، موافقاً للشريعة؛ فمتى كان خالصاً، ولم يكن صواباً: لم يُتقبّل...**

وأمّا إنْ كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عاملُه القصدَ لله: فهو- أيضاً- مردودٌ على فاعله؛ وهذا حال المرائين، والمنافقين كما قال تعالى:{ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى

(١)" تفسير السعدي/٦٢: ٦٣".

الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً}، وقال تعالى: { فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون})[1].

ـــــــ وقد أحسن ابن القيم- رحمه الله- في قوله:

وعبـــادة الرحمن غاية حبه مـع ذل عابـده هما قطبـان

وعليهما فلك العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبـان

ومـداره بالأمـر أمـر رسوله لا بالهوى والنفس والشيطان

فقيـام دين الله بالإخلاص والإحســان إنهما له أصلان

لم ينج من غضب الإله وناره إلا الذي قامت به الأصلان[2]

* وتأمّل- يا رعاك الله- قولَه تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}؛ [النساء: ١٤٥- ١٤٦].

فبعد أن ذمّ اللهُ تبارك وتعالى المنافقين بغاية الذمّ، وبعد أن توعدهم بأبشع الوعيد؛ جعل توبتهم مشروطةً: بالإخلاص، والمتابعة معاً؛ فتأمّل!.

قال الإمام الطبري- رحمه الله- في قوله: { إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ}؛ قال: (وهذا استثناء من الله جل ثناؤه؛ استثنى التائبين من نفاقهم إذا أصلحوا، وأخلصوا الدين لله وحده، وتبرءوا من الآلهة والأنداد، وصدقوا رسولَه أن يكونوا مع المصرين على نفاقهم حتى يوفيهم مناياهم في الآخرة، وأن يدخلوا مداخلهم من جهنم.

بل وعدهم جل ثناؤه أن يُحلّهم مع المؤمنين محل الكرامة، ويسكنهم معهم مساكنهم في الجنة، ووعدهم من الجزاء على توبتهم الجزيل من العطاء؛ فقال: { وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً}.

فتأويل الآية: { إلا الذين تابوا}؛ أي: راجعوا الحق، وأبوا إلا الإقرار بوحدانية الله، وتصديق رسوله، وما جاء به

(١)" تفسير ابن كثير ١/١٥٥: ١٥٦".

(٢)" شرح النونية ١/٢٥٣".

من عند ربه من نفاقهم.

{ وأصلحوا}؛ يعني: وأصلحوا أعمالهم؛ فعملوا بما أمرهم الله به، وأدّوا فرائضه، وانتهوا عمّا نهاهم عنه، وانزجروا عن معاصيه؛{ واعتصموا بالله}؛ يقول: وتمسكوا بعهد الله؛ وقد دللنا فيما مضى قبل على أن الاعتصام: التّمسّك، والتعلّق؛ فالاعتصام بالله: التّمسّك بعهده، وميثاقه الذي عهد في كتابه إلى خلقه من طاعته، وترك معصيته.

{ وأخلصوا دينهم لله}؛ يقول: وأخلصوا طاعتهم، وأعمالهم التي يعملونها لله؛ فأرادوه بها، ولم يعملوها رئاء الناس)[1].

* وقد قال الله تعالى:{ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}؛ [الكهف: ١١٠].

قال ابن كثير- رحمه الله-:({ فمَنْ كان يرجو لقاء ربه}؛ أي: ثوابه، وجزاءه الصالح:{ فليعمل عملاً صالحاً}؛ أي: ما كان موافقاً لشرع الله؛{ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً}؛ وهو الذي يُراد به وجه الله وحده، لا شريك له؛ **وهذان: ركنا العمل الْمُتَقَبَّل؛ لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم)**[2].

وقال السعدي- رحمه الله-:({ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً}؛ وهو الموافق لشرع الله من واجب، ومستحب؛{ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً}؛ أي: لا يُرائي بعمله بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى؛ فهذا الذي جمع بين الإخلاص، والمتابعة: هو الذي ينال ما يرجو، ويطلب؛ وأمّا من عدا ذلك: فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه ونيل رضاه)(٣).

* وعن عائشة- رضي الله عنها-؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال:" مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرنا: فهو رد"(٤).

والحديث: صريح في إبطال كل عمل لم يتحقق فيه شرط المتابعة وإنْ تحقق فيه شرط الإخلاص؛ فلا بد منهما معاً.

---

(١)" تفسير الطبري٥/٣٣٩".

(٢)" تفسير ابن كثير٣/١٠٩".

(٣)" تفسير السعدي/٤٨٩".

(٤)" صحيح مسلم٣/١٣٤٣".

قال ابن رجب- رحمه الله-:(فهذا الحديث بمنطوقه يدل على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع: فهو مردود؛ ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره: فهو غير مردود؛ والمراد بأمره ههنا: دينه، وشرعه كالمراد بقوله في الرواية الأخرى:" مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه: فهو رد"؛ فالمعنى- إذاً- أن مَنْ كان عمله خارجاً عن الشرع، ليس متقيداً بالشرع: فهو مردود.

وقوله:" ليس عليه أمرنا"؛ إشارةٌ إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة؛ فتكون أحكام الشريعة حاكمةً عليها: بأمرها، ونهيها؛ فمَنْ كان عمله جارياً تحت أحكام الشريعة، موافقاً لها: فهو مقبول، ومَنْ كان خارجاً عن ذلك: فهو مردود)[1].

ـــــــ وقد قال الحافظ الحكمي- رحمه الله-:

شرط قبول السعي أن يجتمعا	فيه إصابةٌ وإخلاصٌ معا
لله رب العــرش لا ســواه	موافق الشرع الذي ارتضاه
وكل ما خـالف للوحيـين	فـإنه رَدٌّ بغيـر مَيْــن[2]

قال ابن تيمية- رحمه الله-:(وبالجملة؛ فمعنا أصلان عظيمان؛ أحدهما: أنْ لا نعبد إلا الله، والثاني: أنْ لا نعبده إلا بما شرع؛ لا نعبده بعبادة مبتدعة؛ وهذان الأصلان: هما تحقيق: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله كما قال تعالى:{ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً}؛ قال الفضيل بن عياض: أخلصه، وأصوبه؛ قالوا: يا أبا علي؛ ما أخلصه، وأصوبه؟؛ قال: **إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً: لم يُقبل، وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً: لم يُقبل حتى يكون خالصاً، صواباً؛ والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة)**[3].

ـــــــ وبهذا؛ تمت الأصول العشرة على وجه الإجمال، والإيجاز؛ والحمد لله وحده، ولا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١)" جامع العلوم والحكم/٦٠".

(٢)" معارج القبول١/٤٤".

(٣)" الفتاوى١/٣٣٣".

ثبت الأصول

الأصل الأول: لم يُخلق الإنسانُ عَبثاً	٥
الأصل الثاني: الإنسان خليفةٌ من الله في أرضه	١٣
الأصل الثالث: عبادة الله هي غاية الإنسان التي خُلق لها	٢١
الأصل الرابع: الإسلام هو دين الإنسان	٣٣
الأصل الخامس: كُفْرُ كُلِّ مَنْ لم يتديّن بدين الإسلام	٤٩
الأصل السادس: وجوب اجتناب الشرك عامة	٧١
الأصل السابع: البراء من الشرك وأهله من حقيقة الإسلام	٨٩
الأصل الثامن: الكفر بالطاغوت ركن التوحيد	١٠٥
الأصل التاسع: التزامُ الشرع حقيقةُ الإسلام الجامعة	١١٣
الأصل العاشر: الإخلاص والاتباع شرطا قبول الأعمال	١٣٧